مشاهير عبر التاريخ

رحالة الإصلاح

جمال الدين الأفغاني

Gamal Al-Din Al-Afghani

تأليف

كارم عبد الغفار عوض



جمال الدين الأفغاني

رحالة الإصلاح

الناشـــر

دار الفاروق للاستثمارات الثقافية(ش.م.م)

العنوان: ١٢ ش الدقي – منزل كوبري الدقي – اتجاه الجامعة – الجيزة – مصر

تليفون: ٠٠٢/٠٢/٣٧٦٢٢٨٣٠ – ٠٠٢/٠٢/٣٧٦٢٢٨٣١ – ٠٠٢/٠٢/٣٧٦٢٢٨٣٢ – ٠٠٢/٠٢/٣٧٤٨٠٧٢٩ – ٠٠٢/٠٢/٣٧٤٩١٣٨٨

فاكس: ٠٠٢/٠٢/٣٣٣٨٢٠٧٤

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لـدار الكتـب والوثـائق القومية. إدارة الشئون الفنية.

عوض، كارم عبد الغفار

جمال الدين الأفغاني – رحالة الإصلاح / كارم عبد الغفار عوض؛ – ط ٠١– الجيزة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية(ش.م.م)، ٢٠٠٧.

١٤٤ ص، ١٧ × ٢٤ سم.

تدمك 977-408-746-1

١– المصلحون الاجتماعيون

٢– الأفغاني، جمال الدين بـن صـفدر بـن علـى بـن محمـد، ١٨٣٨ – ١٨٩٧

أ– العنوان

ديوي ٩٢٣,٦

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٢٧٦٩

تدمك 977-408-746-1

العنوان الإلكتروني:
www.daralfarouk.com.eg

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

مشاهير عبر التاريخ

جمال الدين الأفغاني

رحالة الإصلاح

تأليف

كارم عبد الغفار عوض

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي أثنى على رجال صدقوا ما عاهدوه عليه فمنهم رجال قضوا نحبهم وأفضوا بما قدموا إلى ربهم، ومنهم من لا يزالون في الركب منتظرين، بأرواح راسخة رسوخ الجبال وأبدان لا تقر ولا تلين؛ والصلاة والسلام على المعلم الأول والمصلح الأكمل محمد بن عبد الله، وبعد:

فقد علَّمنا صاحب البصيرة بالناس ومعادنهم نبينا محمد ﷺ أن الناس باختلاف نزعاتهم ومواهبهم كإبل مائة لا تكاد تجد فيهم راحلة تتحمل وعثاء السفر وطول الطريق، وتبلغ بالناس سبلا ومسالك وأفكارًا لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس.

وعلَّمنا ﷺ أن الحياة رحلة قصيرة جدًّا إلا أنها شاقة للغاية، بما تحمله من فتن وابتلاءات تسلب ألباب ذوي الألباب، وأن الإنسان فيها عابر سبيل، ليس له حيلة ولا حول بغير الله، وقد أُمر ألا يغادرها إلا وقد شيد بنيانها وعمر خرابها، ولو بأن يضع في جدارها لبنة أو يغرس في طينتها فسيلة.

وعلمنا أن الدنيا بشهواتها ومكارهها تحتاج إلى رحالة مجد لا يضنيه طول مسافة، ولا تحنيه شدة ريح، ولا يفتره فقدان الرفيق، وتُطوى له الأرض بإيمانه رغم أنفها ما دام استأذن الرحالة على ربها، وأخلص له نية الهجرة والسفر.

وعلى الحقيقة والمجاز في حديثنا عن الإقامة والترحال، كان جمال الدين الأفغاني ذاك الرحَّالة الذي حمل زاده على كاهله، وارتحل في طريق طويل؛ يدعو ويُصلح ويبلغ عن نبيه ﷺ آية أو آيات بائعًا بدنه وروحه لله ﷻ، حاملا في صدره كبرياء المستغني - إلا عن الله - فلم ينحن أمام ذوي التيجان والسلطان أو الدنيا وزينتها، وحاملا في عقله علمًا واسعًا يسَّر له الولوج إلى العقول والقلوب، ولسانًا لبقًا زلقًا تنساب عليه أكثر من لغة بإتقان وفصاحة أهلها.

وُلد جمال الدين الأفغاني ونشأ في أفغانستان الإسلامية، واطلع من أعلى رباها على خريطة العالم الإسلامي المهلهلة التي ضاعت معالمها تحت أقــدام احــتلال إنجليزي وروسي وفرنسي دنسها وطوقها من جميع الجهات، فتحركت فيه غيــرة المسلم على أوطانه وحميته لدينه ولدعوته، فقرر أن يترك مستناخ الخمول ويفزع إلى ميدان الدعاة المصلحين العاملين، فغادر موطنه متنقلا ما بين مصر والآستانة والهند وطهران وبطرسبرج وفيينا ولندن وباريس؛ حيث كانت رحلاته الإصلاحية المتتالية، والتي لم تنقطع حتى وفاته؛ حيث لاقاه أجله في وطن غير وطنه.

وهكذا عاش جمال الدين صقرًا محلقًا – كما وصف نفسه – لا يقر به وطــن ولا يقر هو بوطن، تاركًا خلفه أثرًا يقتفيه كل مصلح مخلص، ونقشًا على جــدار الإصلاح يفك رموزه كل من يجيد قراءة قوانين الصلاح والإصلاح.

فنسأل الله العلي العظيم أن يتقبل منا هذا العمل ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، إنه السميع المجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

جمال الدين الإنسان...

(فارس يُعِدُّ الجواد)

أحقر الناس من يطلب موت الناس ليحيا.. وأعظمهم من يستميت ليحيا، ولو واحد من الناس..

جمال الدين الأفغاني

الفصل الأول

جمال الدين الإنسان .. فارس يُعِدُّ الجواد

أولاً: جذور مولده ونشأته[1]

جمال الدين .. أفغاني أم إيراني؟!

ربما يعجب القارئ عندما يلمس مدى الاختلاف الذي نشب بين مترجمي سيرة جمال الدين والذين تناولوه من مؤرخي العصر الحديث عامة، في كثير من تفاصيل حياته، ذلك رغم قرب عهده بنا، ولم يقف الاختلاف عند حدود أيديولوجياته ومنهجه الإصلاحي بل إنهم اختلفوا حول موطنه وأصل نسبه.

فقد تعددت الآراء حول حقيقة موطنه، وهل هو إيراني أم أفغاني، ثم ما يترتب على ذلك من تحديد مذهبه وعقيدته. وقد كان من البدهي أن يقال: إن جمال الدين أفغاني. ويسلم الناس بذلك دون ارتياب ولا شك، ودون حاجة إلى بحث وتنقيب عن حقيقة أخرى.

إلا أن مجموعة من الباحثين – على اختلاف مشاربهم ودوافعهم – نهضوا ليشككوا في حقيقة نسبه إلى أفغانستان مدفوعين في ذلك بأحد أربعة أغراض:

---

(١) راجع في ذلك: جمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته – د/ محمود قاسم – مكتبة الأنجلو المصرية ص ٩ – ١١، وانظر: زعماء الإصلاح في العصر الحديث – أحمد أمين ص ٦٠، جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق للدكتور محمد عمارة – دار الشروق – ص١٧ – ٤٣، وانظر: الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني للدكتور محمد عمارة – دار الكتاب العربي للطباعة النشر– القاهرة ١٩٦٨ص٥٣٣ – ٥٣٨، وخاطرات جمال الدين جمعها محمد المخزومي باشا – دار الحقيقة – بيروت ١٩٨٠ص ١٦– ١٨.

الأول: غرض علمي بحثي يريد أن ينسب الرجل لجنسيته الحقيقية؛ حيث أوصله البحث لهذه النتيجة، ومن ثم فلا بد من تبيينها للأمانة العلمية، ولما يترتب على ذلك من كيفية الإفادة من عَلَم في قامة جمال الدين.

الثاني: غرض طائفي مذهبي عرقي لكاتب ذي جنسية إيرانية أو ذي ميول مذهبية شيعية، يريد أن يعضد ظهره بأن ينسب رجلاً في حجم جمال الدين إلى نسبه.

الثالث: غرض تغريبي تخريبي بأن يكون الباحث ذا ميول استشراقية ويريد بإثباته إيرانية الأفغاني أن يثبت من طرف خفي أن الرجل شيعيٌّ، وبالتالي ينقصه وزنه في العالم الإسلامي، ويشتت شمل الخيوط الفكرية الحركية التي قضى الرجل حياته يغزل فيها، معتمدًا في سعيه بالتأصيل الشرعي لها، والتحامي في الدين، من أجل تأكيد مصداقيته بين جموع الناس، الذين هم أهل سنة وجماعة.

الرابع: غرض انتهازي وانتصار لفكرة ومنهج ما، وذلك بأن يكون الباحث له فكر ومنهج مخالف لفكر ومنهج الأفغاني - الذي اعترض عليه كثير وتناولوه بالتجريح - وبإثبات إيرانية الأفغاني يستطيع صاحب الفكر المضاد أن يكسب جولة خطيرة دون الخوض في مواجهة مع أفكار الأفغاني وحامليها، وذلك بإخراجه عن دائرة أهل السنة والجماعة.

آثار هذا الاختلاف

قد يرى البعض أن هذا الاختلاف قد لا ينبني عليه شيء عملي، كما قال الأفغاني نفسه في هذا الأمر وهو يتحدث عن حياته فقال: "وأي نفع لمن يذكر أني ولدت ١٢٥٤هـ، وعمرت أكثر من نصف عصر، واضطررت إلى ترك بلادي الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض، وأكرهت على مبارحة الهند، وأجبرت على الابتعاد عن مصر أو إن شئت قل نفيت منها، ومن الآستانة ومن

أكثر عواصم الأرض؟ كل هذه الأحوال خاطرات لا تسرني، ولـيس فيهـا أدنـى فائدة للقوم".

لكن نقول إن الأمر مهمٌّ جدًّا من الناحية العملية، فإن أُثبت أن الرجل كـان إيرانيًّا فسهل الإثبات أنَّه كان شيعيًّا، وذلك السعي هو عبارة عن محاولـة لبسط مساحة شرعية صورية لرمي كيل من السباب وصنوف من السهام تستحل عرض الرجل، لا أقول إن هذا سعي مذهب أهل السنة، لكني أقصد تعمد الهدم النفسي لهيبة الرجل في قلوب من يبجلونه ويرونه زعيمًا إسلاميًّا ومصلحًا من طراز فريد، وذلك بأن تُشعل الريبة في عامة فرقة المسلمين – وهم أهل السنة – تجاه الرجل.

أصحاب القولين وأدلة كل منهما[1]

نوجز في هذه السطور – باختصار – رموز الفريقين مع عرض أدلة كل منهما مختصرة، ثم نعرض إلى ما ارتأينا ترجيحه، واستراح له ضميرنا.

من الذين قالوا بإيرانيته

الدكتور لويس عوض في مقالاته التي نشرها في مجلة التضامن تحت عنـوان: جمال الدين ذلك الأفغاني الغامض، والدكتور عبد النعيم حسنين، في كتـاب تحـت عنوان: حقيقة جمال الدين الأفغاني، وهو من جزأين.

وهذا ملخص أدلتهم:

١- أن قرية أسد آباد القريبة من همدان بإيران، هي القرية التي توجد بهـا الآن بقايا أسرة جمال الدين، والتي تسمى بالأسرة الجمالية.

٢- أن اسم أبيه صفدر ومعناها ممزِّق ومفرِّق، وهي صفة أطلقهـا الإيرانيـون على الإمام عليٍّ.

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق ص ٢١.

٣- اهتمامه الزائد بحركة الإصلاح في إيران، وأنه حاول جعلها المركز الرئيس للجامعة الإسلامية.

٤- عثر في وثائقه على تذاكر سفر إحداها - أو اثنتان منها - تابعة للقنصلية الإيرانية، وبالتالي فهو إيراني الجنسية.

٥- العمامة النجفية الإيرانية التي كان يرتديها عندما يزور النجف الأشرف بالعراق.

٦- بعض التحليلات والاستنتاجات من الخطابات المنسوبة إليه التي ظهرت مؤخرًا.

٧- هذا خلاصة ما أتى به القائلون بنسبه الإيراني.

ومن الذين قالوا بأفغانيته

تلميذه الإمام محمد عبده، وتلميذ تليمذه الشيخ محمد رشيد رضا، وعبد القادر المغربي أحد معاصريه في كتابه: جمال الدين الأفغاني، والدكتور محمود قاسم في كتابه: جمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته، والدكتور محمد عمارة في الأعمال الكاملة، والكاتب أحمد أمين في كتاب: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، والدكتور علي شلش، والدكتور حسن حنفي.

وهنا مختصر ردودهم على الفريق الأول، وأدلتهم على أفغانية جمال الدين:

الردود

١- كون جمال الدين ينسب إلى قرية أسد آباد؛ وبالتالي فهو إيراني فهذا مردود عليه بأن كل من أرخ لجمال الدين ذكر قصة اضطهاد أسرته من قبل الأمير دوست محمد خان الأفغاني، حيث أخرج أسرة جمال الدين إلى هذه القرية، وجمال ابن ثماني سنوات، أي أن العائلة أفغانية، وجمال الدين مولود في

أفغانستان هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا إذا سلمنا بأنه نشأ في أسد (سعد) آباد فهي أفغانية سنية وما يضيرها أنها على الحدود الإيرانية.

٢- كون اسم أبيه صفدر الذي معناه "ممزّق" الذي يلقب به الشيعة الإمام علي ﷺ دليل واه من النَّاحية العلمية؛ إذ علينا بهذه الطريقة - كما يشير د/عمارة - أن ننسب كل من اسمه حسن وحسين وعلي، وفاطمة، وغيرها من الأسماء المنتسبة لآل البيت، إلى الشيعة والتشيع.

٣- اهتمامه بحركة الإصلاح في إيران لم يكن بدعًا من قصة جمال الدين الإصلاحية؛ فالرجل مكث في مصر ما يقرب من ثماني سنوات وفي تركيا وفي الهند وفي الحجاز يدعو إلى الإصلاح، وأما كونه أراد أن ينشئ فيها جامعته الإسلامية، فأمر يدهش؛ فكيف ذلك والرجل ظل في عراك مع حاكمها ناصر الدين شاه حتى مات ثم لحقه بعد ذلك بعام؟ فهل كان يريد أن يولي عليها أعتى خصومه؟ وإن كان يريد أن يقيله ويولي غيره، فما كان له أن يفعل وجل كلامه عن الجامعة الإسلامية كان وهو في تركيا تحت راية الخليفة الشرعي للمسلمين.

٤- مسألة التذكرة التي وجدت في وثائقه وأنها كانت ممهورة بخاتم القنصلية الإيرانية، فدون الخوض في تفنيده نقول: إنه من البدهي أن أي سياسي يستطيع أن يحصل على جواز سفر من الدول التي يسافر إليها، خاصة إن كانت علاقته بموطنه الأصلي ليست على ما يرام، ولا سيما إذا كان رحالة جاب مشارق الأرض ومغاربها في رحلات كلها سياسية مثل جمال الدين.

ومن ناحية أخرى استطاع الدكتور عمارة في كتابه "جمال الدين موقظ الشرق"[١] أن يثبت تزييفها، في نقاط نختصرها في الآتي:

---

(١) انظر: ص ٣٣.

أ- التذكرة المستخرجة من القنصلية الإيرانية في القاهرة مكتوبة بالفارسية، ومطبوعة بالمطبعة أي ليست بخط يد.

ب- في نفس التذكرة، مكتوب أسفل الاسم عبارة: "متوجه إلى إسلامبول" وهذا يعني أن جمال الدين حينها كان متوجهًا إلى تركيا، والشاهد أن تاريخ استخراج هذه التذكرة كما هو ثابت عليها: في يوم "السبت ١٣ جماد أول سنة ١٢٨٨ هـ"، ويوافق هذا التاريخ التاريخ الميلادي ٣١ يولية سنة ١٨٧١، وفيه كان الأفغاني مستقرًّا في مصر، حيث كان قد جاءها في أول محرم سنة ١٢٨٨هـ، الموافق ٢٣ مارس ١٨٧١م ولم يسافر في هذا الوقت إلى إسلامبول، إذن فإما أن تكون التذكرة لجمال الدين آخر، أو أن مزورها لم يتقن تزويرها.

٥- مسألة العمة النجفية أكثر سذاجة من سوابقها من الأدلة فجمال الدين عندما كان في مصر ارتدى الطربوش التركي، وعندما كان في تركيا ارتدى نفس الطربوش، وعندما كان في الحجاز ارتدى العقال الحجازي، وعلى هذا لا يضيره أنه ارتدى زي مجتهدي الشيعة في وسط أكبر مدينة يعظمها الشيعة.

٦- أما بشأن الخطابات التي ظهرت مؤخرًا، فليس من العلمي الوثوق فيها، وليس هناك أي دليل علمي لإثبات أن الخط الذي فيها هو خط الأفغاني، هذا فضلاً عن التعارضات التي ملئت بها هذه الخطابات[1].

وأخيرًا: جمال الدين .. أفغاني

تصاعد هذا الجدل واستغرق مساحة وأهمية لا تستحق معاناة الباحثين ومعاناة القراء معهم، حتى إنني ما كنت أود الخوض فيه بدايةً، وحسبنا في هذا الصدد خروجًا من هذه الدائرة المغلقة أن نذكر قول الرجل عن نسبه.

---

(١) إن شئت راجع هذه الخطابات والوثائق في كتاب الدكتور عبد النعيم حسنين.

فقد قال الأفغاني في معرض الحديث عن أصله: لقد استوقفتني الأفغان، وهي أول أرض مس جسمي ترابها.

وليس بعد كلام صاحب النسب كلام، إلا بأدلة أقوى وأصدق، ولا أظن وثائق بريطانيا – الخصم الأول له وللإصلاح في زمنه – أن تكون هي الأصدق، أو تكون هي الحكم؛ لذا فإننا نخسر كثيرًا لو كان الرجل من أهل السنة ثم تمحلنا لنثبت غير ذلك، وعلى العكس مكسبنا جليل لو كان الرجل من أهل السنة وأثبتنا ذلك حتى ولو كانت الأدلة أضعف.

ولما سبق ودون الخوض في المزيد نتفق مع من رجح نسبه الأفغاني وتكون بيانات بطاقته الشخصية كالآتي:

الاسم: السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني.

الأب: السيد صفتر (أو صفدر) بن علي بن مير رضي الدين محمد الحسيني الأفغاني.

الأم: السيدة سكينة بنت مير شرف الدين الحسيني القاضي، وهي ابنة عم أبيه.

الديانة: مسلم.

تاريخ الميلاد: سنة ١٢٥٤ هجرية (١٨٣٩م).

مكان الميلاد: سعد آباد – كنر – كابل – أفغانستان.

ثانيًا: عائلته[1]

ينتمي جمال الدين الأفغاني إلى أسرة من أقدم الأسر وأكثرها مجدًا وشرفًا في بلاد الأفغان؛ لأنها تنسب إلى السيد المحدث الأشهر الإمام الترمذي، ثم يرقى هذا النسب إلى الإمام الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

(١) انظر: زعماء الإصلاح ص ٦٠، جمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته – محمود قاسم ص ٩.

وكانت أسرة الأفغاني ذات بأس وقوة وعصبية في بلاد الأفغان، وأيضًا ذات مكانة نفسية وروحية لديهم، لا سيما وأن بيته كان ينتسب لآل البيت، وهذا الانتساب له حساسيته ومقامه الخاص لدى المسلمين، خاصة أفغانستان وجاراتها.

وبعض المترجمين له يقولون - دون تأكيد - إن عائلته كانت تسيطر على جزء من الأراضي الأفغانية، وكانت تحكمه ولها الولاية فيه، وظلت على هذا الوضع حتى تبدلت الأحوال، وصارت الغلبة على أرض الأفغان للملك محمد خان؛ حيث عمل على سلبها منهم غصبًا ونكاية.

بعد ذلك انتقل السيد صفتر بأهله وإخوته وولده جمال الدين إلى كابل بأمر من الملك الجديد. تابع هذا السياق وأكده الشيخ محمد رشيد رضا.

ثالثًا: النشأة

حال العالم الإسلامي[1]

إن للكون سنة لا تتبدل ولا تتغير، فمن تولى عن الله أوكله الله لنفسه، وتركه ضعيفًا خائرًا، واستبدل به غيره، أكثر حمية وانتماء منه.

ومن عظيم لطف الله بنا أنه عندما تجتمع المحن وتدير حولنا دوائرها، وتلتحم خيوط ظلامها، يبعث الله فينا من يوقد لنا شمعة تعيد لنا الأمل في الضياء.

لقد ولد جمال الدين الأفغاني والعالم الإسلامي يمد يده ويسلم رايته بإذعان مخز لأمة أخرى استبدلها الله بنا؛ لأنها عرفت كيف تنتصر ونحن لم نعرف حتى كيف ننهزم! فقبل شهور من ولادة جمال الدين كانت الأرض الإسلامية تعد بساطها كي يجوبها الأفغاني بعد سنوات، فها هي خيول الإنجليز ترتع في مراتع عدن في

(١) راجع: جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق ص١٠٠- ١٠٣.

جنوب الحجاز منذ عام ١٨٣٨م، كي تستغلها نافذة مفتوحة ليس عليها رقيب، يسهل القفز منها والانقضاض على العالم القابع حولها في سبات وغفلة.

أيضًا استطاع الجيش الإنجليزي في سنة ١٨٤١أن يهبط بأمن وسلام على حدود الشام بل في وسط الشام، ثم مجابهة الجيش المصري هناك وإيقاع الهزيمة بـه - بالطبع ذلك كان بإشراف قوات عثمانية متواطئة - وهو الجيش الذي كـان يقـوده إبراهيم باشا (١٧٨٩- ١٨٤٨) والذي حاول إقامة دولة مصرية شامية موحدة، لكن هيهات فالنهاية المأساوية المؤقتة كانت قد سُطرت في كتاب المسلمين القدري منبئةً بغياب الهيمنة والعزة الإسلامية عن قريب.

وفي سنة ١٨٤٨م تمكن الفرنسيون - الذين سال لعابهم بعد أن رأوا نجاحـات بريطانيا في وطء الأرض الإسلامية بشكل سهل وميسور - تمكنوا من إقامة جهاز حكمهم الاستعماري في بلاد الجزائر، وذلك بعد أن هزموا المقاومـة الجزائريـة الباسلة التي استمرت ثمانية عشر عامًا تقاوم الاحتلال منـذ سـنة ١٨٣٠ حتـى ١٨٤٨.

وفي سنة ١٨٦٠ انتهج الاحتلال خطة خبيثة واستطاع بكل يـسر أن ينـشروا الدسائس بين مسلمي الشام وطوائفهم المختلفة حتى تركوا المعارك وتفرغوا لمجابهة أنفسهم؛ فأراق دماء المسلمين مسلمون، بتشجيع وتصفيق من بريطانيـا وشـقيقتها فرنسا.

وفي سنة ١٨٦٨ رمى الأخطبوط البريطاني بإحدى أذرعه على بلاد الأفغـان، حيث استغلت بريطانيا أحد أفراد العائلة المالكة الطائشين وأعانته على إخوته، مـع الوعد بالمحبة والإخلاص، فانتصر عميلهم في النزاع الداخلي وهو الأميـر شـير علي، وانهزم الأمير الذي كان يتبعه جمال الدين - وكان مناهـضًا للاسـتعمار - وهو الأمير محمد خان، وذلك بعد حرب شارك فيها، وفي الإعداد لها جمال الدين.

وبجوار حدود أفغانستان، كانت الهند بكتلتها البشرية ترزح تحت نير الاستعمار البريطاني، مستسلمة ساكنة، ويعيش أهلها، بمئات ملايينهم هملاً ترعاهم السلبية والدعوات المشبوهة التي يذكي نارها المستعمرون.

أما إيران فكانت مهلهلة الخريطة، فقد تقاسم النفوذ فيها، وحاول السيطرة عليها كل من الإنجليز والروس؛ الأولى من الجنوب، والثانية من الشرق والشمال.

هذا، بينما كانت العروس المصرية تزين لحالة اغتصاب وهتك عرض من قبل الإنجليز، وكان الذي يجهزها للمغتصب هم ديوث حكامها، الذين عروها بنذالة أمام النفوذ الاستعماري الأوربي الذي جاء في ركاب البنوك والديون والمغامرات المالية.

وحول كل ذلك ووسط كل ذلك، زاد الطين بلة والظلام ظلامًا حال الدولة العثمانية، دار خلافة المسلمين ورمز وحدتهم وصمودهم، والتي طالما حيرت ملوك شرق أوربا وأذهبت النوم من جفونهم، الآن يسمونها دولة الرجل المريض، فقد وصل بها الحال أن رفعت أكفها إلى فيها تواري تثاؤبها، معلنة الانسحاب من ميدان المستيقظين، مشيرة بذلك للعدو الأوربي المترقب أن ائتوا وعيثوا في أراضي المسلمين فلم يعد لهم حارس ولا كبير ولا بوق يعلن النفير.

ولعل كل هذه الشجون أشعلت صدر الأفغاني غيظًا ولهيبًا، أججته رياح الحنق والثورة على عدو متمثل في دولتين كانتا منذ عهد قريب صغيرتين تافهتين، استطاعتا أن تمرقا وتزعزعا جغرافيا وتاريخ أمة استوعبت خريطتها ما يقرب من ثلثي العالم.

وبالتأكيد كان ذلك المناخ سببًا رئيسًا في وضوح الرؤية أمامه بشكل أكبر، في فترة نضاله القادمة، ورحلاته الإصلاحية التي لن تتوقف حتى يُتوقف.

بين كابل وسعد آباد وطهران[1]

نشأ الأفغاني في سعد آباد بكابل بأفغانستان وقضى فيها شوطًا من طفولتـــه، إلا أن الجو السياسي كان ملبدًا بالغيوم، وكان لوالد جمال الدين دور سياســـي مـــوال لإحدى القوى المجابهة للأمير محمد خان، الذي حينما واتته الفرصة لم يتردد فـــي نفي السيد صفتر وعائلته – كما قدمنا – إلى أقصى الحدود الأفغانية.

فخرج السيد صفتر – في عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م – نحو قزوين بجوار مدينة همدان الإيرانية، وعمل هناك مدرسًا بمدرسة قزوين، وألحق ابنه جمال الدين بهـــا وكان سنه وقتها ثماني سنوات، فمكثوا هناك سنتين ظهرت فيها بوادر ميل الأفغاني العلمي؛ حيث كان يصعد سطح منزله ليتأمل النجوم وعوالم الفلك.

وفي هذه السنة انتشر مرض الطاعون ببلدة قزوين؛ فحصد كثيرًا مـــن الأرواح ولم يجد له متصد، يدفع شره عن الناس الذين سلموا له وكأنه قدر لا يمكن الفـــرار منه، فاستثار الأمر عقلية جمال الدين الذي أخذ يبحث عن طريقة للتعامل مع هـــذا الداء اللعين حتى وصل به الأمر إلى أنه كان يتفحص أجساد الموتى كي يعلم كنـــه المرض وأسبابه.

فلما رأى والده ذلك، ورأى أنهم قد يكونون من حصاد الطاعون هو وعائلتـــه، قرر الفرار المؤقت إلى طهران وكان ذلك عام ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م.

ووصلوا هناك في أوئل سنة ١٢٦٦هـ، وأقاموا في محلة سنكلج، كضيوف على رجل يدعى سليمان خان، المعروف بصاحب بختيار، ومكثوا هناك شهورًا، تحـــت رعاية هذا الرجل.

ثم قرر والد جمال الدين أن يغادر طهران إلى مدينة تسمى "بروجرود" وهنـــاك رحب بهم أهلها وفي مقدمتهم الحاج ميرزا محمود المجتهد؛ حيث استضاف جمـــال الدين وأباه ثلاثة أشهر.

---

(١) انظر: جمال الدين موقظ الشرق ص٤٣، ٤٦.

ومن بروجرود انتقلا إلى النجف وفيها استضافهما رجل يدعى الشيخ مرتضى. وقد مكث الأب في النجف شهورًا ثم غادرها إلى أسد آباد تاركًا جمال الدين الذي مكث في النجف بعد ذلك أربع سنوات[1].

رابعًا: علمه[2]

النشأة علمية

أحب الأفغاني منذ طفولته العلم وأهله واستطاع والده أن يؤهله لاستقبال كل العلوم بشتى أصنافها وتفرعاتها؛ فعلمه اللغة العربية حتى أجادها ثم بدأ في سن ما قبل العاشرة يحفظه القرآن الكريم، ويربيه على مبادئه وأوامره ونواهيه حتى نشأ الغلام نشأة دينية محصَّنة، وكأنه كان يستشرف مستقبله ويعده لمهمة ثقيلة.

أسفار علمية

طاف كثيرًا من البلاد طلبًا للعلم؛ فسافر إلى الهند والحجاز ومكة وإيران واستانبول؛ وفي هذا الصدد نستطيع أن نقول إن رحلاته الأولى هذه لم تكن للتنزه والاستجمام، بل كانت سعيًا وراء العلم وأهله.

---

(١) من هذا السياق يتضح أن الأفغاني قضى هذه الفترة بطولها بين مجتمع غالبيته شيعة، وهذا الأمر كان يستحق التوقف عند من نسبوه للشيعة، وهو أولى من قرائن أخرى، لا ترقى لمستوى البحث.

(٢) انظر: محمود قاسم ص ١٢، وجمال الدين الأفغاني موقظ الشرق ص ٤٦، وجمال الدين الأفغاني (المئوية الأولى) – د/حسن حنفي ص ٢٢– ٢٣، ورواد الوعي الإنساني – د/عثمان أمين – دار القلم ص ١٢.

عباءات العلماء وعمائمهم

فعلى سبيل المثال يقول الأفغاني في خاطراته وهو يتحدث عن رحلته الأولى إلى طهران: سألت عن أكبر علماء طهران في ذلك الوقت، فقيل لي: إنه أقاسيد صادق، فتوجهت إلى مجلس درسه في اليوم التالي، دون أن أخبر والدي بذلك، فوجدته جالسًا بين طلابه يقرأ كتابًا عربيًّا، ويشرح مسألة من المسائل العلمية، ولاحظت أنه شرحها شرحًا مقتضبًا، فطلبت منه أن يعيد شرحها بصورة أكثر تفصيلاً، حتى يتفهمها الجميع. فتعجب الشيخ من جرأتي وفضولي، ولكني أجبته بأن طلب العلم لا فضول فيه، ثم قمت بقراءة تلك المسألة وتفسيرها، فتحرك الشيخ من مكانه، فظننت أنه يريد بي شرًّا، ولكنه أقبل علي، وضمني إلى صدره، وقبّلني، ثم أرسل إلى والدي يستدعيه، وأمر أن تشترى لي عباءة وعمامة، وأن يلبسوني العباءة ثم قام هو بلف العمامة، ووضعها بيده فوق رأسي.

الأفغاني والعلم الموسوعي

بالإضافة إلى ما سبق كان مكوثه أربع سنوات وحيدًا وهو لا يزال صبيًّا في مدينة كالنجف دافعًا للتعلم وطلب العلم، واستطاع جمال الدين بمثابرته ونجابته المبكرة أن يحصّل كثيرًا من العلوم وفي جميع المجالات، ففي المجال الديني درس التفسير والحديث والفقه والأصول وكان في الفقه حنفي المذهب، وفي المجال الفلسفي درس الفلسفة والكلام والمنطق، وفي المجال العلمي درس الرياضة والطب والتشريح والنجوم، وفي الأدب واللغة أتقن العربية وآدابها وتعلم سبعة لغات أصيلة، وأجادها كأهلها هي: العربية والفارسية والتركية والإنجليزية والروسية و السنسكريتية، وأجاد الفرنسية أيام إقامته في فرنسا وكان قد تعلم مبادئها وحروفها باجتهاد شخصي منه واستطاع أن يتكلمها في ثلاثة شهور.

خامسًا: صفاته الشخصية[1]

لم يكن جمال الدين ملكًا سماويًّا أنزل على البشر، فقد كان شخصًا عاديًّا للغاية كباقي رجال عصره من المسلمين، لكنه تفرد بأنه كان من الصنف الذين عرفوا فلزموا .. عرف عمق المستنقع الذي هوت فيه الأمة الإسلامية فلزم العمل والدعوة وإيقاظ من يستطيع إيقاظه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وبطريقته المتفردة في العمل الإسلامي لم يكن له شبيه في عصره، فالمصلحون في أمتنا كُثر على اختلاف مشاربهم وأوطانهم، لكن كل منهم كان مدار عمله وسعيه وإصلاحه داخل حدود أرضه، ومنهم محمد عبده – تلميذه – في مصر، وأحمد خان في تركيا، لكن هذا الرجل كان نسيجًا مختلفًا وطبيعة مختلفة ومنهجًا مختلفًا؛ لذا كان حتمًا أن تكون له صفات مختلفة.

وأفضل من يدلنا على سماته الشخصية أقرب رجلين إليه – وإن كان إعجابهما به قد يبدو مبالغًا فيه – وهما – حسب تتبع السياق التأريخي لسيرته – الشيخان: محمد عبده، ومحمد المخزومي.

فالأول رافقه شطر رحلته الإصلاحية تقريبًا، وعاش معه همومه من بدايتها، وخطى معه خطوات واسعة في مشواره الطويل، والثاني رافقه في آخر حياته في الآستانة، وكان معه خطوة بخطوة، وكتب عنه خاطراته المسماة بخاطرات جمال الدين الأفغاني.

ومما قاله فيه الإمام محمد عبده:

أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه، أما خلقته فهو يمثل لناظره عربيًّا

---

(١) انظر: زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ٦١- ٦٣، ص ٢٢، ٢٣ نقلاً عن خاطرات جمال الدين الأفغاني – محمد المخزومي – دار الحقيقة (بيروت) – ١٩٨٠ ص ١٥- ١٨، وعلي شلش ص ٩، ١٠.

محضًا من أهالي الحرمين، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سكنة الحجاز، ربعة في طوله، وسط في بنيته، قمحي في لونه، عصبي في مزاجه، عظيم الرأس في اعتدال، عريض الجبهة في تناسب، واسع العينين، عظيم الأحداق ضخم الوجنات رحب الصدر، جليل المنظر.

ومن جانبه يصفه المخزومي بتفصيل أكثر في عدة جوانب أخرى:

ففي عقيدته

كان صحيح العقيدة، مؤمنًا بالألوهية، شديد التمسك بحكمة الدين، ومع ذلك كان نفورًا من التعصب ومن التقليد في المذهب.

وفي علمه

كان مجتهدًا لدرجة الغرابة والخروج على المألوف في التفسير، كان قوي الذاكرة، سريع الحفظ، قوي الحجة.

وفي حواره

يجذب مخاطبه إليه، له أسلوبه الخاص في المقدمات، يتعذر إقناعه جدلاً لأسلوبه الخاص في إبطال الحجة عليه أو التخلص منها دون مكابرة.

وفي نفسه

عظيم النفس، كبير الهمة، شجاع، جريء، يقدم حيث يحجم الناس، ويتكلم حين يسكتون رغبة أو رهبة، كان مهابًا أكثر منه محبوبًا، وفي نفس الوقت كان متواضعًا مع من أقل منه، متكبرًا على الملوك والعظماء لحد التجبر.

سادسًا: مقارنة بين شخصيتي الأفغاني وابن خلدون

في تحليله لشخصية الأفغاني وعرض تاريخه وصفاته الشخصية، وقف عبد القادر المغربي - أحد أهم الرجال الذين ترجموا للأفغاني - وقفة لطيفة على مقارنة بين شخصية الأفغاني بكل أبعادها وشخصية ابن خلدون، وذكر أكثر من وجه لإثبات التشابه بينهما رغم الفارق الزمني الذي يصل إلى خمسة قرون، ووجوه التشابه التي وقف عليها تتمثل في النقاط التالية[١]:

- تشابه العصرين الإسلاميين اللذين عاشاهما كل من ابن خلدون والأفغاني من حيث الانكسار الحضاري والردة الثقافية أمام الاستعمار، فابن خلدون في المغرب كان يعاني السيطرة الأوربية التي انتزعت كثيرًا من أراضي الإسلام هناك، وأيضًا تبعات الهجمات الصليبية في الشرق وذيولها.
- كل منهما اشتغل بالسياسة وتولى مناصب سياسية، ولم يكتف بريشته وأحباره، بل توغل في الحياة العملية وعمل على التغيير من داخل التابوت الحاكم.
- كان كل منهما يتصف بشيء من التسرع وحدة المزاج، فلسان الدين الخطيب - الذي كان صديقًا مقربًا لابن خلدون - يصفه بأنه كان بعيدًا عن التأني، ويعلق على ذلك بقوله: إن هذا الخلق هو السبب في نكباته، وتحامل رجال الدولة عليه. وهو بالضبط ما كان في جمال الدين كما وصفه تلميذه محمد عبده، وقال في سياق الحديث عن حدته: وطالما هدمت الحدة ما بنته الفطنة.

وهو ما سنناقشه في نهاية الكتاب عن تهوره السياسي، وعدم مرونته الحركية.

---

(١) انظر: جمال الدين الأفغاني - عبد القادر المغربي - دار المعارف - ص ١٨ وما بعدها.

- درس كل منهما العلوم الإسلامية، وتفوق في غيرها من العلوم ووصف بالموسوعية في العلم وبتفوقه على أقرانه في جميع المجالات.
- كان كل منهما عقلانيًّا في استنباط أحكام الدين والاجتهاد فيه، وهذا جلب عليهما متاعب كثيرة من قبل شيوخ لا يحبون مثل هذا التوجه، فقد عانى ابن خلدون من الشيخ المتشدد ابن عرفة، كما عانى الأفغاني من الشيخ عليش في مصر وغيره في إيران وتركيا.
- وأخيرًا تشابها في الميتة فمات كل منهما بعيدًا عن أرضه؛ حيث مات ابن خلدون في مصر، ودفن بمقابر الصوفية ومقبرته غير معروفة حتى اليوم، كذلك مات الأفغاني بالآستانة ودفن بها وكاد أن يدرس قبره ويُنسى، لولا أن جدده أحد المستشرقين ثم نقل رفاته إلى موطنه الأصلي.

والآن حان وقت الارتحال، فننتقل إلى رحلاته وأسفاره الممتعة عبر أقطار العالم الإسلامي والأوربي، لنقف على أدق تفاصيل حياته.

الفصل الثاني

جمال الدين وأفغانستان...

(قصة مواطن ووطن)

لقد جمعت ما تفرق من الفكر، ولممت شعث التصور، ونظرت إلى الشرق وأهله، فاستوقفني الأفغان وهي أول أرض مس جسمي ترابها...

جمال الدين الأفغاني

الفصل الثاني

جمال الدين وأفغانستان

(قصة مواطن ووطن)

أولاً: قبل الترحال

شهد القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي زمن الاحتضار الحزين للخلافة الإسلامية التي طالما وارت عوراتنا، وتشتت الأمة التي ظلت خمسة عشر قرنًا موحدة، تستظل براية واحدة.

ففي هذه الفترة عملت سنة الله في الدول فينا وتداولت أيامنا، ورصدتنا الدول الغازية التي أثرنا شهيتها عندما رأت عدم قدرتنا على السعي أو الحركة.

فها هي إنجلترا وفرنسا وأمريكا وروسيا وإيطاليا، يضبطون بوصلاتهم نحو الشرق، ويحشدون ليوثهم وتيوسهم صوب العالم الإسلامي، منتهزين فرصة الغفلة التي تعيشها الفريسة.

وحتى الدول التي لم تستطع أن تباشر الانقضاض علينا وجهًا لوجه سعت إلينا بالحيلة وأدارت بنا الدوائر ومضت تنخر في أساس جدارنا؛ حتى ارتج قليلاً ثم انقض وسقط وتناثرت أحجاره، حتى دخلت كل بلد إسلامي.

الأفغاني يقول: أنا لها!

وفي هذا الوقت كان من العسير على أهل المروءة الذين رباهم الإسلام وغذتهم أرضه أن يقفوا متفرجين وهم يرون حضارتهم تعالج سكرات الموت؛ فسعى كل منهم وعمل على شاكلته، فثار عرابي والبارودي لأنهما كانا يمتلكان السيف،

وخطب مصطفى كامل وأشعل الحماس لأنه كان يمتلك اللسان، وعلم محمد عبده وربى لأنه كان فقيهًا عالمًا، وشاغب النديم لأنه كان يمتلك الجرأة على المغامرة.

ومن قبل هؤلاء جميعًا خرج الأفغاني بمشروع لم يكن يهيأ لغيره لما امتلكه من خُلق وخَلْق؛ فهو في الجنسية أفغاني أي مسلم أعجمي، عندما ينادي بالوحدة لن يستطيع أن يفصل الأعاجم عن العرب كما فعل بعض المناضلين الذين اكتفوا بوحدة اللسان وقالوا: حسبنا القومية ناصرًا، ثم ذهبوا حتى يجملوا مشروعهم بأن صبغوه بقليل من الأسلمة؛ حيث أرادوا أن يعكسوا الأمر فالإسلام يحيط بالعرب والأعاجم، لكن العروبة لا تحيط إلا بالعرب.

وهو في العلم موسوعي غير متخصص يخوض في كل شأن بقوة وحصافة كأنه من رجالات هذا المجال.

ومن ناحية القبول الشخصي كان الأفغاني يتمتع بحضور روحي عال يجذب أية عين، ولا يخطئ كلامه أذنًا؛ لذا كان مشروع جمال الدين الإصلاحي الضخم على قدر عزمه وما أوتي من قوة.

فما لبثت فكرته أن ظهرت حتى انتشرت وصار لها جماهير، وما انتشرت حتى ووجهت وحاول البعض أن يكسرها ويحبط مدها، بأقاويل مريضة فارغة، لكن مضت سنة الله في أرضه؛ أن الكلاب يزداد عواؤها والقوافل يجد حاديها في السير.

الحنين إلى كابل

بعدما أتم الأفغاني دراسته سافر – طلبًا للعلم – إلى بلاد الهند، ومكث فيها سنة وعدة شهور. وفي أثناء تلك الإقامة درس العلوم الرياضية وفقًا للمنهج الأوربي الحديث، وبعدما أشبع نهمه العلمي، قرر العودة إلى موطنه "كابل" وكان في غاية الشوق إليها.

لكنه قبل السفر إلى بلده قرر أن يشبع حاجاته الروحية أيضًا فسافر لأداء فريضة الحج، لكن بعد وصوله هناك استأنس الأرض وريحها، فمكث فيها وطالت به مدة السفر نحوًا من عام، وكان حجه في سنة ١٢٧٣هـ (١٨٥٧م).

عودة إلى الوطن وبداية العمل

بعد حجه ومكثه هذه المدة في الحجاز بجوار بيت الله، جمع جمال الدين متاعه وعزم على الرحيل إلى كابل ووصلها في استهلالات عام ١٢٧٤هـ.

وكانت لهذه الرحلات فائدة جليلة وأثر كبير على دور الأفغاني؛ حيث يسرت له في وقت مبكر أن يطلع على أحوال كثير من بلاد الإسلام، وأن يقف بعينه على مقدار ما وصلت إليه من التفكك والتخاذل والوهن، وقسوة ما يبيته لها أعداؤها من الغربيين - لا سيما فرنسا وإنجلترا - فقد كانوا يحيكون دسائسهم، وينصبون حبائلهم في ذلك الوقت لاقتناص إيران وابتلاع مصر، وللقضاء على دولة آل عثمان، فلم يكن عجبًا أن ثارت حميته الدينية.

ثانيًا: انطلاقة التغيير من أفغانستان

حال أفغانستان ودور جمال الدين[1]

بعد أن أدى جمال الدين مناسك الحج في عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م، استطاع أن يطلع على أحوال العالم الإسلامي عن قرب ومساس عن طريق المسلمين من شتى البلاد.

فمنهم من جاء من بلاد المغرب عليه آثار الإهانة الفرنسية، أو من أتى من ناحية الجنوب الإفريقي؛ حيث السيطرة الهولندية، أو من شرق آسيا؛ حيث العنجهية

(١) راجع في ذلك: عبد القادر المغربي ص ٢٨، ٢٩، وانظر: د/ محمود قاسم ص ١١- ١٦، وانظر: علي شلش ص ٧٣- ٧٦.

البريطانية، أو من الشرق الأوربي المسلم الذي حاربته روسيا علنًا في عقيدته، وأكرهته على تركها.

كل ذلك جعل جمال الدين يدرك حجم البلوى التي حلت بعالمه الإسلامي فعاد إلى بلاده، وفي ذهنه عشرات الخطط للهجوم أو حتى محاولة الدفاع، وفي ذاكرته صور إخوانه وألوانهم التي غيرتها صبغات الاحتلال المهينة.

فعندما عاد جمال الدين إلى وطنه أفغانستان وجدها تلامس أمرَّ أنواع الاحتلال وهو الروسي؛ حيث باشر الروس العمل بتبجح ضد الديانة الإسلامية، وحاربوا المسلمين وآذوهم أشد إيذاء، ومما زادهم حنقًا واستمرارًا في نكاياتهم، الجلد العظيم لأهل هذه النواحي وشدة تمسكهم بدينهم الإسلامي.

وعلى هذا نهض جمال الدين للعمل باجتهاد وعزم عال، وانتظم في سلك الوظائف الحكومية في أيام الأمير محمد خان، واستطاع أن يصل إلى مقامات مرموقة لديه حتى صحبه هذا الأمير في غزوه لهراة التي كان يؤيد افتتاحها وضمها إلى ملكه. لكن ما لبث الأمير أن مات وانتقلت الإمارة من بعده إلى ابنه شير علي خان.

فكانت ولاية هذا الأمير الجديد فاتحة لعهد مظلم مليء بالفتن والحروب والصراعات الداخلية. فقد سعت إنجلترا – إمعانًا في مكرها، ورغبة في استكمال دائرتها، والاقتراب بل الالتحام مع تخوم المُلك الروسي – لإكمال السيطرة على هذه الدولة الأبية.

فدبرت إنجلترا الخطة البدهية لمن أراد النصرة على خصم متعدد وفي عين الوقت متجدد؛ فسعت إلى التفرقة بين الأمير وسائر أهله الذين اتحدوا معه، علها تسود، وتكمل ما نقص من معالم خريطة الإمبراطورية البريطانية في العالم الإسلامي.

ومن هنا كانت إشارة البدء والعمل لجمال الدين الذي ازداد حنقه حنقًا ونشاطه نشاطًا ولم يدع الفتنة تخلفه حيرانًا، فحاول أن ينقاد لزعيم يوحد ويسود ويحمي البلاد، إلا أنه وجد أن داء التفرق قد عضل وسار في الجسد المسلم متشبثًا به كأنه قد رضعه في زمن السقوط والانحدار.

فقد تحقق في النفوس المسلمة ما أنذر به النبي ﷺ ووقعت الأثرة وأعجب كل صاحب رأي برأيه، وتداعت على أمة الإسلام سائر الأمم.

لذا قرر الأفغاني العمل وحيدًا بما يمليه عليه عقله وقلبه الذي نقشت فيه الخريطة الإسلامية، وصارت كل ثغرة تطؤها قدم محتل هي جرح في جسده لا يطيب ولا يذبل، بل يشعله ثورة وغضبًا، كلما زيد في الثغور ثغر.

وعلى هذا انطلق جمال الدين يعمل على شاكلته، يملؤه البغض للصديق الغبي الذي خُدع بالدنيا وعروشها، ونسي سنة الأولين التي خلت من قبل، قدر بغضه وكرهه لعدو متغطرس لم يكن ليقوى على رفع بندقيته تحت سماء إسلامية، لولا أن قواد الإسلام أظهروا وداعة وخمولاً وشغفًا بالسلطنة والإمارة على حساب كل ما له قيمة.

صناعة الفتن .. لها رجال

إن الفتن توقدها نفوس كَمُن شرها زمنًا تستتر من أيد قد تطفئه إن بدت بوادره، فتختبئ حتى إذا ما واتتها الفرصة وساعدها المناخ على الاشتعال والانتشار، اشتعلت وهب لهيبها وأحرقت كل شيء يطاله سعيرها.

كان الشير علي قادرًا أن يخلد لنفسه ذكرًا حسنًا لو استمر في طريقته، وجمع السواعد حوله وبنى أفغانستان محصنة ضد النزاعات وضد اختراقات العدو المتربص، إلا أنه أعطى أذنه لناصح سوء، فقد بدأت الفتنة عندما استمع شير علي

إلى وزيره محمد رفيق خان الذي - بالفعل - خان أمانته وزين لأميره الغدر بإخوته وكسر شوكتهم؛ حتى لا ينازعوه في الملك أو يعكروا عليه صفوه أو ينغصوا عليه غروره بكلمة نصح أو مشورة.

فأشار الوزير على أميره إشارة امرأة العزيز بأن يسجنوا أو يعذبوا، فقام بكرمه وحنكته بالأمرين معًا؛ حيث عزلهم عن الحياة السياسية كلية، وبخاصة من كانوا أكبر منه سنًّا؛ لأنهم لا ريب أكثر طمعًا في الملك، ولئن نفذ ما دبره له وزيره فسيقطع عليهم كل سبيل إلى التآمر.

بيَّت الوزير وملكه أمرهما؛ بينما كان ثلاثة من الإخوة في الجيش، تناقل إليهم ما قرره أخوهم وما يراد بهم ويحاك لهم في الظلام، فخافوا على أنفسهم، وفروا إلى الأقاليم واعتصم كل منهم بالولاية التي كان أبوه قد عهد بها إليه.

أعظم خان ينتصر ومعه الأفغاني

وبدأت الحروب بين الإخوة، وعظم الأمر في أفغانستان وتشتت شمل الأفغانيين فما يدرون من يناصرون وضد من يحاربون، فجميعهم إخوة، والعدو متربص ينتظر الفريسة.

أما جمال الدين الأفغاني فلم يحتر كثيرًا، وقرر على الفور الانضمام إلى محمد أعظم خان، أحد الثلاثة المتربص بهم(١).

استمرت الحروب طويلاً حتى أضنت الجميع ولم ينتصر فيها حقيقةً ويجني مغانمها إلا الخصم الذي يراقب المهزلة من بعيد.

---

(١) لا ندري لماذا اختار جمال الدين الأفغاني أن يكون من فريقه؛ فلم يكن أكبرهم فنقول رآه أولاهم، ولا اشتهر عنه الصلاح دونهم فنقول أصلحهم، إلا أن السياق التاريخي يقول إنه كان أقواهم، فقد يكون ضمان النصرة هو السبب، أو يكون السبب علاقة طيبة مع هذا الأمير لم نقف عليها في بحثنا.

قد يكون النصر الشكلي المؤقت قد حالف الأمير محمد أعظم خان ففرض سيطرته على إخوته. ودخل كابل العاصمة سعيدًا منشرح الصدر، وفعل جميلاً فأطلق سراح أخيه الأكبر محمد أفضل خان الذي كان سجينًا في كابل، ونادى به أميرًا على أفغانستان.

القصة لا تنتهي في مثل هذه الحالات هكذا، بل نستطيع أن نقول إن القصة قد انتهت مع نشوب أول نزاع وارتفاع أول سيف بين الإخوة، فما كان لأمة أو لدولة أو لبلدة صغيرة يفسد ذات بين أمرائها، ويحتار أهل الحل والعقد فيها في اختيار ملكهم، إلا تدخلت سنة الله فيهم وعملت عملها التاريخي، ومكنت منهم من كانوا يخشونه؛ لأنهم فضلوا عدوًّا شرسًا بعيدًا عن قريب مناوش، وأجنبيًّا طالما سعى في الظلام لإفساد حالهم عن ذي الرحم.

فلم يمض عام واحد حتى لقي الأمير محمد أفضل خان ربه، فولي أخوه محمد أعظم خان صاحب الانتصار والإيثار الذي انضوى تحت رايته جمال الدين الأفغاني.

وكان الأفغاني قد أمضى معه عدة سنوات كلها جهاد وصراع؛ فلم ينس له الأمير الجديد جميله فقربه منه وبوأه مكانته التي يستحقها؛ فبدأ نجم جمال الدين يسطع بجوار أميره الذي اصطفاه وجعله أكبر وزرائه؛ أي شغل مقام ما نسميه الآن رئيس وزراء.

وتبع ذلك تردد سيرته وامتداحه على ألسنة الرأي العام الأفغاني، ذلك رغم صغر سنه، واستمرت مكانته في العلو في هذه الدولة الجديدة.

لكن كما قلنا دول التاريخ لا ترحم، والعروش التي يُسعَى إليها سريعًا ما تلفظ جليسها، فمحمد أعظم خان كان يستطيع أن يبني أفغانستان ويهيئ الشعب لمواجهة عدو قابع خلف الأسوار في انتظار غفوة إلا أنه هو الذي غفا وتناسى عبرة

التاريخ، ووسوس له شيطان التفرد والطمع الذي سبق أن وسوس لأخيه، وزين له إقصاء إخوته عن مقامه بأية وسيلة حتى يطمئن قلبه ويهدأ باله على ملكه.

وبالفعل أخذ محمد أعظم خان يشكك في إخلاص إخوته، ويرتاب في كل تصرف منهم وإن بدا مخلصًا، وبالتالي قدم عليهم أبناءه المراهقين قليلي الخبرة والفطنة كثيري الغرور والنزوع إلى الضلال.

فتنة جديدة .. وانكسار فريق الأفغاني

تشاء الأقدار ويشاء التاريخ أن يكون هؤلاء الغلمان الذين قدمهم محمد أعظم خان على إخوته هم سبب ذهاب ملكه وشقوته، فقد رأى أحد أبنائه أنه فارس مغوار، وعمه الذي كان يحاربه أبوه مارق لا بد أن يحز رقبته، ورأى الفتى أنه هو القادر على فعل ذلك فامتطى جواده، واستنفر جزءًا من الجيش، واتجه نحو عمه الشير علي خان الذي كان معتصمًا بمدينة هراة كي يحاربه ويقضي عليه.

إلا أن الفتى المتهور كان صيدًا سهلاً وسمينًا لعمه المخضرم الذي استطاع بسهولة ويسر أن يمسك به ويأسره لديه ليقايض عليه أباه، فثارت ثائرة محمد أعظم خان الذي استنفر سائر الجيش، وأشعلها حربًا على أخيه مرة أخرى، وعلى نحو أشد عنفًا وضراوة، وتاه مصير الشعب المسكين مرة أخرى.

وهنا حانت الفرصة التي طال انتظارها من أولئك المحتلين المحتالين لصوص الزحام والغفوات؛ إنجلترا وصواحباتها ممن أعدوا سهامهم لثيران الوطن الإسلامي، فكلما أصابت ثورًا كبوة استعجلوه بالذبح.

وها هي إنجلترا رأت أفغانستان قد سقطت في مستنقع حروبها واستطاعت بتدبيرها المكير أن تستقطب أحد الخصمين إلى صفها وتساعده وتبارك سعيه وتدعمه؛ كي يسلم لها مفاتيح الدولة بعد تخريبها وإهلاك الطرف الآخر.

وبالفعل استطاعت أن تضوي الشير علي تحت جناحها الميمون، بل استطاعت بإغراءاتها المادية أن تجر رؤساء قبائل أفغانستانية إلى مستنقع الخيانة القذر، ودعمت بهم صديقها الخائن فزادت قوته قوة؛ فكان النصر هذه المرة – بطبيعة الحال – حليفًا لحليف الإنجليز؛ حيث انتصر الشير علي على أخيه محمد أعظم وأكبر مؤازريه جمال الدين الأفغاني وكان ذلك سنة ١٢٨٥هـ (١٨٦٩م).

استولى الشير علي على أفغانستان وتنفست إنجلترا صعداءها فأخيرًا تحقق طموحها، وصار لهم في بلاد الأفغان قدم بل أقدام، ولم يجد الشيخ المسكين – محمد أعظم خان – أمامه حلاً إلا أن يترك البلد للحاكم الجديد، ويهاجر إلى بلد آخر، بعيدًا عن تربصات الحاكم وشكوكه.

وبالفعل وقع اختياره على إيران؛ فحزم أمره وشد الرحال إليها وبعد أشهر أدركته منيته هناك حيث مات في مدينة نيسابور.

أما وزيره وساعده الأيمن جمال الدين الأفغاني فكان نسبه العلوي ومكانته في نفوس الشعب الأفغاني درعًا واقية من تقلبات التاريخ، فكانت له تكأة وملجأ يحميه من ذاك الأمير الذي أدرك أن المساس بجمال الدين قد يثير عليه كثيرًا من المشاكل، فحمد الله على ما حققه وترك الشيخ دون أن يقترب منه.

إلا أن الشير علي – وقد سلم لحيته لإنجلترا – لم يكن ليترك رجلاً مثل جمال الدين الأفغاني يعيش هكذا هادئ البال فقد يدبر له أمرًا أو مكيدة؛ فأخذ يضطهده بأساليب إبليسية مكيرة، وهو أسلوب ينجح كثيرًا خاصة مع مثل هذه الشخصيات؛ حتى إنه كثيرًا ما يستخدم في عصرنا الحالي، وهو أن تطعن الرمز في عين السبب الذي من أجله يكبره الناس ويجلونه، فإن كان رجل دين اتهمته في ولائه للإسلام، وإن كان رجل سياسة اتهمته في ولائه للوطن، وإن كان رجل علم اتهمته في شهاداته، وإن كان مجاهدًا اتهمته في نيته وهكذا.

لكن المشكلة مع جمال الدين كانت أكبر من كل ذلك، فهو كان كل ذلك: رجل دين وسياسة وعلم وجهاد، فاستخدم معه الأمير هذا السلاح حتى يضطره إلى مغادرة البلاد بقرار منه دون إثارة الرأي العام، فأشاع عنه الأمير وعماله تهمًا شتى حتى يفضوا الناس من حوله، فإن لم يحدث فيكفي أن يزهدوه في المُكث داخل أفغانستان، فاتهموه بالمروق والخيانة والجهالة وغيرها من التهم.

وهذا السلاح الذي تتجسد فيه كل معاني النذالة سنراه قد استخدم كثيرًا مع جمال الدين في رحلته الطويلة في العالم الإسلامي.

وتحت هذه الظروف لم يجد جمال الدين الأفغاني بدًّا من مغادرة أفغانستان إلى بلد آخر يستطيع أن يقول فيه ما يريد ويربي ويعلم الناس كيف يريد، بعيدًا عن تسلط الأمير، والأيادي الأجنبية التي تتحرك وتُحرِّك من وراء الستار.

الفصل الثالث

جمال الدين ...

المصلح ورحلات الإصلاح

إنني كصقر محلق يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيقًا لطيرانه! وإنني لأتعجب منكم إذ تريدون أن تحبسوني في هذا القفص الضيق الصغير ...

جمال الدين الأفغاني

الفصل الثالث

جمال الدين.. المصلح ورحلات الإصلاح

الرحلة الأولـى

ثلاثـون يومًا في الهند[1]

العبور عن طريق الهند

بعد أن وجد الأفغاني أن السماء الأفغانية قد لبدت بغيوم من العسير العمل تحتها؛ اختار أن يفارقها إلى ميدان أرحب وأكثر استعدادًا لخطة العمل التي ارتسمت في عقله، فقرر أن يبدأ رحلته الإصلاحية في الشرق الإسلامي.

ووفقًا لذكائه السياسي لم يشأ الأفغاني أن يخرج مباشرة من أفغانستان كأنه هارب أو منسحب من معركة؛ فاستأذن من الأمير علي في الخروج للحج، فالتقطها الأمير ورآها فرصة لإبعاده عن دائرة حكمه إيثارًا للسلامة والهدوء اللذين قد تنغصهما عليه شخصية مثل جمال الدين الأفغاني.

فأذن له الأمير على الفور، إلا أنه بدافع وساوسه والتي تصير سمتًا أساسيًّا لدى أي شخص ينتزع أية سلطة بهذه الطريقة، فكل الناس أعداؤه وكل الناس متآمرون؛ اشترط عليه ألا يمر في طريقه إلى الحج بإيران، وذلك خوفًا من أن يلتقي في طريقه إلى الحجاز بمحمد أعظم – ولم تكن منيته قد وافته بعد – فيتحدان عليه، فوافق الأفغاني ووعده بتنفيذ ما طلب.

---

(١) راجع الرحلة في: الأفغاني موقظ الشرق ص ٤٩، ومحمود قاسم ص ١٦.

حمل الأفغاني أمتعته البسيطة وخرج متجهًا نحو الحجاز معلنًا بداية رحلاته التي لن تنتهي حتى ينتهي سعيه، وكان خروجه من أفغانستان في عام ١٢٨٥هـ.

ووفقًا لما وعد به الأمير اختار أن يعبر إلى الحجاز عن طريق الهند التي كان له بها أحد الأصدقاء الأفغانيين، فقرر أن يحط رحاله عنده أثناء المرور، فكتب إليه أنه سيحل ضيفًا عليه، على أيسر ما تتطلبه ضيافة الصديق للصديق.

حال الهند

كانت شبه الجزيرة الهندية واقعة تحت نير الاحتلال البريطاني، وعددها المتزايد يزيدها همًّا على هم وبؤسًا على بؤس، وليس هناك من يحرك ساكنًا أو يقول: "لا" في وجه الاستعمار والاستبداد البريطاني، فكانوا دائمًا في انتظار من يأخذ بزمامهم ويتحرك بهم حتى ظهر الأفغاني.

استقبال الإنجليز .. مأرب لا حفاوة من كريم

الأفغاني لم يكن رجلاً عاديًا وكانت آراؤه ضد الإنجليز معروفة ومنتشرة؛ لذا فقد كان في حسبانه أن الإنجليز لن يتركوه ينعم بضيافة هنيئة ميسرة في بلد هم محتلوه، وهم يعلمون مدى عداوته وكرهه لهم وعمله على إخراجهم من كل بلد إسلامي.

لكن حدث ما لم يتوقعه؛ حيث استقبلوه كأنه أحد رموز بريطانيا، وأبدوا له احتفاء وسعادة بزيارته للهند، لكنه لم ينخدع وأدرك أن إنجلترا لم تفعلها إلا لغرض في نفسها.

وبالفعل كانت الحكومة الإنجليزية في الهند قد بدأت تقدر خطره وأثره في تحريك النفوس؛ فرغبت في أن تحول دونه ودون الاتصال بمسلمي الهند.

فلم تجد وسيلة أفضل من أن تعد له هذا الاستقبال الرسمي الحكومي الفخم؛ ومن ثم تستطيع أن تطوقه بطوق من ذهب، حيث تكون الصديق المتابع لأحوال

صديقه ويخاف على مصلحته؛ إذن يلاحقه ويهتم براحته ومسكنه وحركاته وسكناته كأصدقاء محبين.

ويُحكى عن الأفغاني أنه عندما لم يجد بين الجمهور أحدًا من معارفه قال جملة واحدة معبرة عما أحسه من قبل الإنجليز: "مأرب لا حفاوة من كريم". ولأن الخطة هدفها الحد من أي عمل يحتك من خلاله بالجماهير أو أن يقول أمامهم ما لا يُرضي السياسة البريطانية؛ فقد أسرع دبلوماسيو بريطانيا العمليون فسألوه: كم المدة التي تريد قضاءها في الهند؟ فأجابهم زاهدًا في الدخول في صراع معهم: شهران.

فتنفسوا الصعداء وظنوا أنها مدة يسيرة لن تسعفه أن يجمع فيها الناس حوله أو يبث فيهم أفكاره عن الحرية والثورة، إلا أن الرجل كان يملك ما لا تملكه عقارب الساعة المسرعة، فما استطاعت الدنيا بأمكنتها أن تحد من دورانه، أيضًا لم يستطع الزمان أن يكون أمامه عقبة.

فلم يلبث طويلاً حتى وصل صوته جموع الهنود وأصغت إليه آذانهم؛ حتى فزعوا إليه وسلموا له قلوبهم، فالشعب المحتل ما هو إلا مريض أقعده وأعجزه مرضه، فيكون أعز إنسان إليه الطبيب أو أي شخص يمتلك له دواء أو يدله على قاتل مرضه.

وهنا تدخل الإنجليز سريعًا ليحولوا بين الثقاب والهشيم، وقالوا له بتبجح مساوية للكرم الذي استقبلوه به: "غادر البلاد".

الأفغاني .. والهنود الذباب!

رغم قصر المدة التي قضاها الأفغاني وسط الهنود فإنه عز عليه أن يتركهم دون أن يفرغ لهم ما في قلبه من الألم والحسرة على حال جزء من الأمة تشكل ركنًا ركينًا في بنائها، إن لم يكن بكيفها فبكمها.

ففي أول اللقاءات بينه وبين الجماهير لم يكن ليطلب ودهم بكلمات حانية ترطب حر الاحتلال وتبشر بانفراجة الكرب، مثل مسكنات الخطباء، بل كان قول جمال

الدين قول رجل لا يدري عساه ألا يطأ هذه الأرض ثانية، ولا تسمعه هذه الآذان مرة أخرى، فقال ما يرضيه أمام الله، ويرضي ضميره المصلح، ويترك عليهم حجته، فأخذ يعيرهم بجبنهم وتخاذلهم وسكوتهم على الضيم، وتسليمهم للاستعمار الإنجليزي، وهم ملايين من البشر.

وقال لهم إنهم لو كانوا ملايين الذباب لكاد طنينهم يصم آذان بريطانيا. أو لو أن الله مسخهم سلاحف وخاضوا البحر، وأحاطوا بالجزر البريطانية، لجروهم إلى قاع البحر، ولعادوا إلى بلادهم أحرارًا.

ويقال: إن الأفغاني ما كاد يفرغ من كلامه حتى تسابقت الدموع إلى عيون السامعين، فقال لهم: "اعلموا أن البكاء للنساء، والسلطان محمود الغزنوي ما أتى إلى الهند باكيًا بل شاهرًا السلاح، لا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل الاستقلال بثغر باسم".

ترحيل الأفغاني من الهند

رجل يُخشى من مجرد مروره من بلد محتلة خشية أن يجتمع حوله الناس أو حتى يرونه، بالتأكيد إنه يمتلك مقومات غير عادية، أو أن الدولة المحتلة هي أضعف من أن تواجه رجلاً واحدًا يرفع راية حق، ويؤمن بقضيته مثل طراز الأفغاني.

فقد أصرت الحكومة البريطانية بعنجهيتها على ألا يمر الأفغاني في رحلته إلى بيت الله من الأراضي الهندية، فلله در الهند لو أن لها شعبًا كله من طراز جمال الدين أو بعضه، والله ما وطئت بريطانيا أرضهم، بل لتوجه الهنود نحوها وفتحوها.

وقامت الحكومة الإنجليزية بكرمها المعهود مع الأفغاني، بوضعه في سفينة بحرية على نفقتها كانت متوجهة نحو الحجاز، فسارت به على طول سواحل الهند حتى غادرها وهو معها على موعد قريب[١].

---

(١) راجع: محمود قاسم ص ١٧.

الرحلة الثانية

أربعون ليلة في مصر[١]

استقل الأفغاني السفينة ونيته متوجهة إلى الحجاز إلا أنه لما رأى السفينة تقترب من مدينة السويس، وهبت عليه الروائح المصرية؛ قرر أن يؤجل الخطى نحو الحجاز إلى حينٍ، عساه أن يكون له في مصر - عروس المسلمين - شأن، ويستفيد إذا نزلها ووصل إلى رجالاتها الذين سمع عنهم الكثير.

نزل الأفغاني السويس وداست أقدامه مصر لأول مرة ومن غير ميعاد، وكان ذلك في أواخر سنة ١٢٨٦هـ.

استحضر الأفغاني مشروعه الإصلاحي الذي لم تكن ملامحه قد اتضحت بعد، ووجد في هذا الوقت أن أهم ما يحتاج إليه داعية إصلاح هو رجال مثله يحملون عن عاتقه بعضًا مما يحمل، ويكونون له عونًا في نشر دعوته التي يستحيل رجل واحد مهما علت همته وطالت هامته أن يوصلها ويحقق منهجها بمفرده؛ لذا اتجه تفكيره إلى تربية تلاميذ يرثون فكرته عندما يرحل عن محطته التي يحط فيها؛ فلا تموت الروح التي يبثها في الناس بمجرد مغادرته الأرض والأجساد[٢]، أيضًا تكشفت له أبعاد قد يكون مدركًا لها لأنه عاناها قبل ذلك، ولكن فقط أكدت له أن طريق المصلحين مليء بالأشواك.

---

(١) راجع: قضايا من الفكر الإسلامي الحديث - د/ عبد اللطيف العبد - دار الهانئ - ٢٠٠٥م - ص ١١٧، وانظر: رواد الوعي الإنساني ص ١٣، ١٤، والأفغاني موقظ الشرق ص ٤٩، ٥٠.

(٢) وهذه الطريقة نعى محمد عبده على جمال الدين عدم استخدامه لها فيما بعد كمنهج إصلاحي فعلي، وكان ذلك سببًا رئيسًا في انصرافه عنه.

فعندما نزل القاهرة لاقى فيها كثيرًا من الأحداث التي أثرت في الواقع المصري، وأثرت في رحلته وأوضحت أمامه كثيرًا من معالمها، أيضًا عرفته على رجال حاقدين يرون في كل من نال شهرة أو علا ذكره، خطرًا يهدد مناطق نفوذهم، فلا تسلم له نياتهم، ولا تهدأ عواصف نفوسهم حتى يغيبوه عن حدودهم.

مصر عام ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩م)

في هذا العام كان الخديوي إسماعيل يفتتح إحدى منجزاته؛ قناة السويس، كانت مصر مثلها مثل أخواتها المسلمات تمر بوعكة سياسية اقتصادية تحولت فيما بعد إلى مرض عضال كان سببًا فيه خديوها المتفرنج إسماعيل، ونتناول ذلك تفصيلاً في الرحلة الثانية إلى مصر.

أثر الأفغاني في مصر

لم يضع الأفغاني وقتًا، وسريعًا ما التقى بطلاب العلم النابهين الذين قدروه قدره وأخذوا يتقربون إليه، وينهلون من إلهاماته العلمية، واشتهر في الحرص على ذلك الشباب السوريون فهم أكثر من استفاد من علم الأفغاني، بل وطلبوا منه أن يشرح لهم أحد الكتب في اللغة العربية وبالفعل شرح لهم كتاب "شرح الإظهار في اللغة العربية".

وكانت هذه الفترة هي بداية لقاء الشيخ جمال الدين الأفغاني بوريثه الأشهر الشيخ محمد عبده، وكان ذلك عن طريق الطلاب الشوام، فكان هذا اللقاء هو البداية العملية الحقيقية للمشروع الأفغاني؛ حيث وجد ساعدًا قويًّا سيستعين به على قسوة المناخ ووعورة السبيل التي سلكها.

وقد ذكر الشيخ محمد عبده متى وكيف عرفه ولازمه فقال: "قد صاحبته، ابتداء من شهر المحرم سنة ١٢٨٧هـ وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية والكلامية وأدعو الناس إلى التلقي عنه".

مكائد أزهرية

ها هو الأفغاني يواجه عقبة ستظل بارزة أمامه أينما توجه به السير أو حط به الرحال، إنهم الحاسدون أصحاب العقول الصدئة والقلوب المريضة الذين يرون في كل ناجح خطرًا يهددهم وضوءًا يكشف عوارهم، ومستقبلاً سيطيح بنفوذهم، فيخططون تخطيط إخوة يوسف وخياراتهم إما أن يقتلوه أو يطرحوه أرضًا أو يلقوه في غيابة جب، فيقول الشيخ محمد عبده في ذلك: "أخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل، بل يزعمون أن تلقي العلوم قد يفضي إلى زعزعة العقائد الصحيحة!..".

وبالطبع انفض من حوله ضعاف الهمم من الطلبة ممن يخشون الألسنة، والإشاعات.

لكن الطلبة السوريين كان لهم مع الرجل موقف آخر؛ فأخذوا يتعلمون منه ما استطاعوا، وأدركوا أن لقياه مغنم لا يعوض، أما تلميذه النجيب محمد عبده فقد انضم للكتيبة السورية ولازم أستاذه طيلة الفترة التي مكثها في مصر.

ومن ناحيته لم يكن الأفغاني في هذا التوقيت ليحتمل الهجمات الشرسة من رموز دينية كهؤلاء، ففضل أن يترك الساحة لهم خالية حتى حين.

وبالفعل جمع الأفغاني متاعه بعد أربعين يومًا من وضعه وغادر مصر متوجهًا إلى عاصمة الخلافة العثمانية الآستانة، مؤجلاً الرحلة الحجازية إلى أجل لم يُسمَّ.

الرحلة الثالثة

في الآستانة.. الأفغاني ووضوح الرؤية[1]

١٢٨٧هـ /١٨٧٠م


جمال الدين الأفغاني بالزي التركي.

في هذا الوقت كان للآستانة قوة ومركز – على الأقل في قلوب المسلمين – ذلك رغم الضعف والخور اللذين كانت تمر بهما الخلافة الإسلامية المتمثلة في العثمانيين وعاصمتهم الآستانة؛ لذا كان الولوج إلى الأراضي التركية خطوة جيدة للسيد جمال الدين الأفغاني.

ولقد رأى الأفغاني أنه لو استطاع أن يحقق فيها بعضًا مما طمح إليه فإنه بذلك يكون قد قطع شوطًا كبيرًا، وادخر لنفسه جهدًا مضاعفًا،فهو إذا استطاع أن يبث ما عنده في المركز فبطبيعة الحال سينعكس ذلك على من جاوره وتبعه.

استقبال استامبولي

في الآستانة استُقبل الأفغاني استقبالاً يؤكد لكل متشكك أن الرجل – رغم قلة الوسائل الإعلامية في هذا العصر – قد علا صيته حتى بلغ كل هذه المسافات، ولقد

(١) انظر: محمود قاسم ص ١٨– ٢٣، ورواد الوعي الإنساني ص ١٦– ١٨.

خرج السلطان بنفسه يستقبله، وكان حينها هو السلطان عبد العزيز محمود (حكم من ١٨٦٠إلى ١٨٧٦) ثم التقاه أيضًا الصدر الأعظم عالي باشا، بعد وصوله بأيام قليلة.

وقد أشيع في كتابات متأخرة أن العلاقة بين الصدر الأعظم وجمال الدين الأفغاني لم تكن على ما يرام، وهذا القول مجرد تكهن لم يقم عليه أي دليل، اللهم إلا قول أحد من عرفوه وهو السيد إسحاق أديب، وكان أيضًا تكهنًا منه ليس له أساس.

أما سائر من تابعوه في هذه الفترة فقد أكدوا أن علاقة الرجلين كانت جيدة للغاية، ويؤكد ذلك ما كان بينهما من التقاء فكري لا سيما حول فكرة الجامعة الإسلامية - التي بدأت بذورها تُبذر في هذه الفترة - واتفاق الاثنين على أهمية جمع الأمة تحت راية الإسلام؛ حيث كان ذلك وحده كفيلاً بتأليف قلبيهما لبعضهما، ولا أصل لمن قال إن الصدر الأعظم كان قد رفض مقابلته.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمود قاسم: إن الصدر الأعظم عالي باشا بلغ تكريمه لجمال الدين أن خصص له وظيفة تنهض بأمره وتكفيه حاجته، فجعله عضوًا في مجلس المعارف، ويسر له البروز والظهور أمام الناس، فاستطاع بجميل خصاله أن ينفرد بآذانهم وينال إعجابهم، وكان ذلك سببًا لإثارة حسد الحاسدين عليه.

الأفغاني خطيب آسر

استطاع الأفغاني أن يلج الميدان الآستاني ويكسب أهل بلاده غليظي الطبع، بمقوماته الشخصية الفريدة وبسماحته الراقية وسلوكه الوسطي، ثم مظهره وزيه الأفغاني الوطني - إذ كان يلبس جبَّة وكساء وعمامة - وكان ذلك المظهر وسيلة دعائية ذكية من وسائله الإعلامية كداعية إسلامي غير تقليدي يدرك أن للمظهر تأثيرًا يسبق الداعية إلى الناس؛ فيسهل التحدث انطلاقًا من انطباع جميل.

فقد أقبل الناس عليه في البداية بدافع من حب الاطلاع أولاً؛ فما يكادون يستمعون إليه ويطلعون على بضاعته العلمية والإيمانية حتى يجدوا آراء جيدة حيَّة، لم يسمعوها من قبل.

أيضًا لمسوا في الأفغاني الغيرة والحمية الشديدة للدين، قل أن يحسوها لدى رجال الدين الرسميين عندهم، فزاد احترامهم له واشتد إقبالهم عليه، ومع الوقت كبر جمال الدين وبدأت أنظار أهل الغيرة والنفرة من أمثاله تتجه إليه، وهم مجموعة من رجال الدين الذين زاد حنقهم عليه.

فكان يدهشهم أن الرجل رغم تغربه ووفوده على بلد لا يعرفها يستطيع بكل هذه السهولة وفي تلك الفترة الوجيزة، أن يصنع لنفسه هذا المقام الأخَّاذ، وأن تصير له تلك المكانة العظيمة التي فاقت مكانة الأمراء، وهذا كان شأن الأفغاني في كل بلد يطؤها. وعلى هذا كان الأمر مثيرًا للأحقاد والمخاوف من قبل محبي الأضواء وعشاق التلميع، لذا فقد بدأوا ينتبهون إليه جيدًا.

نشاط الأفغاني في تركيا

دون أن يضيع وقتًا، بدأ جمال الدين الأفغاني دوره سريعًا كعادته وزج بنفسه في الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية لذلك الوطن الثري بكل الأفكار والاتجاهات، فجهز خطته وأدرك ما يريد تحقيقه في هذه الفترة، ونظر إلى الواقع التركي، وصوب نظره نحو طريقة الحكم والسياسة العامة للدولة.

أخذ الأفغاني يطالب بمطالب إصلاحية كانت مختمرة في ذهنه وشبه معدة مسبقًا، إلى حد أن المستر "بلونت" يعترف بأن سعي العثمانين في تحول حكومتهم إلى حكومة دستورية في بادئ الأمر قد ينسب إلى شيء من تأثير جمال الدين.

فقد أقام في عاصمتهم يحاورهم ويخطب فيهم؛ فكان الأفغاني لا ينقطع عن إلقاء المحاضرات في المساجد والمحافل، بخاصة في جامع أيا صوفية وجامع أحمد.

ولم يكن عجبًا بعد ذلك في شيء أن يشعل جمال الدين الكيد الرابض خلف بعض

الصدور، التي ما لبثت أن تحول بغضها الصامت إلى أفعال وخطط ستكون سببًا في إقصائه عن تركيا.

المصيدة نصبت والأفغاني سقط

قلنا إن الحسد والتربص سيصيران ديدنًا من قبل آخرين في حياة الأفغاني، فذلك النوع من الابتلاءات هو درجات سلم الصعود لا بد أن يرتقيها من طلب تلك المعالي الدعوية الإصلاحية التي سار نحوها الأفغاني.

وكانت دعوته وفق هذا المنهج وبقدر هذا الحجم؛ مفزعة لقوم ومحفزة لهم على التفرغ له والجلوس على قارعات طرقه يسطرون كراساتهم، ويبرون أقلامهم، ويحصون الزلات والهفوات والكلمات التي تؤول على غير لفظها، فتصير الهنة كفرًا، وما أيسر ذلك على أولئك، لا سيما إذا كان المتربَّص به فارسًا جوادُه لسانه، وسلاحه الخطاب والإلقاء والارتجال المباشر وسط الجموع.

لذا كان يجب على الأفغاني بحصافته ألا يعطيهم الفرصة كي يوقعوا به، لا سيما وأنه قد خبر مثل هؤلاء عبر رحلاته السابقة؛ فكان لا بد له أن يكون أكثر حذرًا في أحاديثه.

والآن نقرأ هذا النص ثم نتابع نتائجه.

قال الأفغاني في إحدى خطبه مستشهدًا بشعر فارسي:

"علم الحق مندرج في علم الصوفية ..

ولكن كيف يصدق الناس هذا الكلام؟!

إذ إن علم الصوفية حادث، وعلم الحق قديم..

فكيف يدرك هذا العقل السليم؟!"

بدهيًا، إن من يسمع هذا الكلام يستطيع أن يفهمه أكثر من فهم؛ إما حسب ما أراد صاحب الكلام أو حسب ما أراد صاحب الأذن.

وهذه الطريقة سقطة يقع فيها كثير من دعاة عصرنا؛ فهم عن حسن نية وطيب قصد، يقولون كلامًا قد يصدم من لا يفهمه، وقد يتلقفه متربص، ويجتزئه من سياقه ويروجه على غير الموضع الذي قيل فيه أو القصد الذي قيل له، ومن ثم كان على الأفغاني أن يدقق في كلامه ولا يلقيه هكذا، فهو بقوله مثل هذا الكلام الهلامي يفتح على نفسه أبوابًا للتأول عليه، واتهامه بما ليس فيه، لكنه بهذه الطريقة هو الذي يسلم أعداءه سلاحًا، ويقول لهم: اطعنوني.

بالطبع كان لأعدائه عشرات الطرق التي يستطيعون بها أن يسقطوه في مصيدتهم المأجورة وإن لم يزل، لكن ما كان ينبغي أن يكون ذلك بيده.

كان من تبعات تلك الخطبة أن تلقفها الشيخ يوسف وهبي، وقام بواجبه الوطني! ونقلها إلى شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي، وكل له طريقته في نقلها، ثم قام الشيخ حسن فهمي – الأكثر وطنية – بنقل الكلام للسلطان عبد العزيز، فقد حاولا بهذا أن يطعنا في عقيدة جمال الدين. ومضى الأمر في البداية دون أن يحدث رد فعل من السلطة إلا أنها حسبت هنة على السيد جمال الدين ستجتمع مع أخواتها فيما بعد[(١)].

لم يغب هذا الـ"بعد" طويلاً، ففي عام ١٢٨٧هـ/ ديسمبر ١٨٧٠ دعاه مدير دار الفنون تحسين أفندي للتحدث عن الصنعة والصناعة وطلب منه أن يرغب فيهما كي يحفز العمال على العمل، وبالفعل جهز الأفغاني محاضرته، ولأنه كان يعلم أن هناك من ينتظر أن يلقيه حتفه بلسانه؛ عرض المحاضرة أولاً على وزير المعارف فأبدى إعجابه بها ولم يبد أي تحفظ، فذهب الأفغاني لموعده، وبدأ حديثه عن الكون، ومثل له بكائن حي له أعضاء، وتحدث عن روحه فقال إنها إما "الحكمة المكتسبة" أو "النبوة" التي يصطفي لها الله من يشاء ..

التقف هذه الكلمات من قضوا ليلهم ونهارهم ينتظرون للرجل زلة وحرفوا وجهتها، وأوصلوها للسلطان بشكل آخر فقالوا له: إنه يقول: إن النبوة صنعة يمكن

(١) انظر: الأفغاني موقظ الشرق ص ٥١.

تحصيلها بالاكتساب .. وأذيع هذا المعنى حتى إن شيخ الإسلام بعث برجاله يستنفروا غضبة وعاظ المساجد على ذاك الرجل الذي جاء يبدل دينهم.

وبالفعل ظهر المنافحون عن الإسلام من كل حدب وصوب من أرجاء الآستانة، يرددون شيئًا لم يُقل من الأصل، وسريعًا ما دبجت الخطب الرنانة وكتبت المقالات الصارخة.

وقد كتبت رسالة في هذا الصدد باسم مسجوع تردد فرية الأفغاني التي لفقت له فسماها صاحبها " عين الصواب في الرد على من قال: إن الرسالة والنبوة صنعتان تنالان بالاكتساب"، ولله در التاريخ ما أشبه الليلة بالبارحة!

وكعادتها في كل زمان، وجدت الأبواق الإعلامية – والمتمثلة في الصحف في هذا الوقت – في هذا النزاع غذاءً لقرائها، فنسجت حوله، وزادت فيه، ونفخت فيه.

وأمام هذا الاتهام وهذه الهجمة الشرسة التي طالت دين الرجل وعقيدته، ثارت ثائرة الأفغاني وطالب بمحاكمة رموز الدين في الدولة الذين شاركوا في هذه الفرية، ثم في رميه بالباطل، وقد كان يقود هذه الحملة شيخ الإسلام في تركيا، ولأن جمال الدين كان وحيدًا أعزل لم يُنصف كما سعى. حتى إن الشعب التركي لم يقف معه بالشكل المتوقع؛ لأن العامة ثقافتهم من إعلامهم، وكان الإعلام متمثلاً في رموز الدولة الذين صنعوا أصل المكيدة وأخذوا يلونونها بصبغة الغيرة على الدين والذود عن أركانه، واستطاعوا أن يشعلوا بذلك حماس كثير من الناس ضد ذاك الغريب الذي جاء ليفتنهم.

ومن ناحية أخرى أيد الأفغاني كثير من التركيين، لا سيما المثقفين؛ لذا انقسم الرأي العام التركي إلى قسمين؛ أحدهما يطالب بمعاقبة الأفغاني والوقوف أمام فكره، والآخر يدافع عنه ويطالب بمعاقبة من أخطأ في حقه من العلماء أو أتباعهم، واحتار السلطان عبد العزيز كيف يدبر الأمر وفوضه للصدر الأعظم عالي باشا الذي كان أمامه خياران؛ إما الانتصار لرجل غريب على خاصته وخاصة السلطان، وذلك أمر صعب مهما علا قدر الرجل، وإما أن ينهي هذا الاشتباك بأن يخرج الأفغاني من تركيا.

وقع اختيار الصدر الأعظم على أسلم الخيارين، فأبدى للأفغاني برفق رغبة السلطان في أن يغادر الآستانة حتى تهدأ النفوس، ولم يجد الأفغاني مجالاً للتردد أو النقاش فامتثل لرغبة السلطان والصدر الأعظم، وكان قراره أن يسافر إلى الحجاز(١).

حصاد الرحلة التركية

لا بد أن الأفغاني قد استفاد كثيرًا من هذه الرحلة، ومن الفوائد التي حصدها:

١- لم يكن الأفغاني قد تمرس بعد على مواجهة مثل هذه المكائد فأدرك أن لله في دعاته سنة ابتلاءات يأتي على رأس قائمتها الابتلاء بالطعن في الدين والعقيدة، وذلك حدث ولا يزال يتكرر ويحدث مع كثير من الدعاة والمصلحين الذين يرى فيهم أهل السلطة أنهم خطرٌ عليهم فيوعزون إلى أبواقهم بأن أبرزوه ملحدًا أو كافرًا أو جاهلاً، فإن لم يكن أهل السلطة فمرضى النفوس الذين يخشون من كل قرين.

٢- أخطأ في أنه مكن خصومه من حصاد نتائجها؛ بأن فرغ نفسه للرد عليهم وترك نفسه أمام ثورتها فتحدى رمزًا كبيرًا كان من المفروض ألا يجابهه هكذا، وهذا ما قاله تلميذه محمد عبده حين علق على ما حدث بقوله: فأذهبت الحدة ما بنته الفطنة.

٣- في خطبتيه الأولى والثانية أخطأ الأفغاني في اختيار عبارات أدمج فيها علم الإلهيات بشكل قد يكون عن حسن نية من جانبه، لكن ما للعامة والنبوة الموهوبة والحكمة المكتسبة! وما نكهة الحديث في أن نقول: إن علم الصوفية حادث أو علم الحق قديم! فما جنى الأفغاني من ذلك إلا أن أورط نفسه في ردود وتبريرات ثم احتدام وثورة ثم خروج عن مكان كان يستطيع أن يبقى مع أهله أكثر من ذلك.

---

(١) انظر: الأفغاني موقظ الشرق ص ٥١- ٥٢، محمود قاسم ص ٢٢.

الرحلة الرابعة

في مصر للمرة الثانية سكة الأفغاني .. كلها مسالك

(١٢٨٨ - ١٢٩٦هـ / ١٨٧١ - ١٨٧٩ م[١])

يقول الأفغاني عن مصر: مصر أحب بلاد الله إلي وقضيتها أهم قضايا المسألة الشرقية، وهي مفتاحها، ولقد كان المتأمل في مصيرها، قبل التدخل الاستعماري فيها، يحكم حكمًا ربما لم يكن بعيدًا عن الواقع، أن عاصمتها تصير في وقت قريب أو بعيد، كرسي مدنية لأعظم الممالك الشرقية، بل كان هذا الأمر أمرًا مقررًا في نفوس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها، وهو أملهم الفرد كلما ألم بهم خطب أو عرض خطر[٢].

في الرحلات الثلاث السابقة كان الأفغاني غالبًا ما يقرر الذهاب إلى الحجاز ثم يتعثر ويظهر له أمر يحول بينه وبين الحجاز، لكن هذه المرة تمكن الأفغاني من نزول هذه الأرض الطيبة.

وكان يبدو أنه يريد الإقامة فيها، لكن كانت إرادة الله شيئًا آخر، فما لمثله أن يمكث في أرض كي يزرع ويحصد ويأكل ويعيش ويتعبد مثل الآخرين، بل كان واجبًا عليه بما وهبه الله من هبات الدعوة والوصول إلى قلوب الناس، ووضوح فكرة الإصلاح ومنهجيته في ذهنه، ألا يستوطن بلدًا ما حتى ينشر إحياءه في الدول الإسلامية كلها.

---

(١) راجع: زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص ٦١ وما بعدها.

(٢) الأفغاني موقظ الشرق ص ٢٣٠-٢٣١، نقلاً عن الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٤٦٧.

لملم الأفغاني متاعه - كما تعود - وترك تركيا على نفس الهيئة التي ترك بها أفغانستان ومصر والهند، ولكن هذه المرة ازدادت خبراته خبرات، وتمرس في فن التعامل مع السلطات وذوي النفوذ الذين يقفون له بالمرصاد، ولغيره ممن حمل الفكرة نفسها.

توجه الأفغاني نحو الحجاز ومكث فيها أيامًا إلا أن صحته اعتلت على جوها وآثر القدر له أن يغادرها إلى مصر لتكون له فيها جولة لا تنتهي آثارها على مر السنين.

قرر الأفغاني التوجه نحو مصر للمرة الثانية، وكان ذلك في ٢٢ مارس سنة ١٨٧١م وفي أوائل سنة ١٢٨٨هـ.

حال مصر يستوجب الحسرات

لو ألقينا نظرة سريعة على حال مصر حينئذ ومدى تأهب أرضها وحاجتها لمثل هذا الزارع، لوجدنا أنها كمثيلاتها من الدول الإسلامية كانت تسقط في خندق التبعية للغرب، إن لم يكن بشكل واقعي تحت نير الاحتلال العسكري فكانت بالأنكى منه والأشد وهو الاحتلال الاقتصادي.

وكان منهج الاحتلال غالبًا أنه يقدم لنفسه بجنوده العسكريين، ثم يفرض ما يريد على الاقتصاد والتجارة والحياة السياسية والاجتماعية، لكن مع دولة بقوة مصر كان الأمر يحتاج إلى تخطيط أدق وحيلة أحكم.

لذا بدأت إنجلترا باحتلال ثقافي بأن جعلت حاكمها - الخديوي إسماعيل حينها - تابعًا لها متيمًا بحضارتها، ومن ثم أطمعته في أن ينال ما عندها من كماليات حضارية، ظن هو أن فيها المجد كله، فأقبل يسرف ببذخ على مثل هذه الأشياء.

وعلى إثر هذا العته بدأ الوضع المالي في الانهيار التدريجي، حتى سقطت مصر في وهدة الديون للدول عينها التي أراد الخديوي إسماعيل أن يكون ذيلا ثقافيًّا لها، وهما دولتا فرنسا وإنجلترا اللتان أرادتا أن تقتسما الكعكة المصرية الضخمة.

ومضت الدولتان - بعد أن تأكد لهما أن الرجل سقط في شراكهما ولن يستطيع سداد ديونهما - تطالبان بما لهما من مال أو مقابله، وبالطبع لم يكن هناك مال ولم ترد فرنسا أو إنجلترا مالاً بل أرادتا مقابله، فتوارتا خلف ستار المطالبة بالرقابة والإشراف على عملية الإدارة المالية في البلاد المصرية كي ييسرا لنفسيهما قضاء مستحقاتهما، وهما تسعيان لتركيع الواقع المصري لأغراضهما حتى يسهل احتلالها العسكري بعد ذلك، وهو ما حدث في عام ١٨٨١م.

رياض باشا وجمال الدين

يقال إن رياض باشا هو الذي سعى إلى جمال الدين كي يأتي إلى مصر بعدما ذاع صيت الرجل، ولفت انتباه جميع الساسة إما عن توجس أو إعجاب.

وكان رياض باشا ناظر النظار المصري من الفريق الثاني، حيث كان قد زار تركيا وقابل جمال الدين هناك، وأدرك مدى قوته وتأثيره في الرأي العام الذي كان رياض باشا يود أن يثيره ويحرك ركاده، فأرسل إليه يستدعيه إلى مصر، فقبل جمال الدين الأفغاني وأدار دفته وأبحر نحوها.

ويذكر بعض المؤرخين - إنصافًا لرياض باشا - أنه كان مستشعرًا لما يخطط له الغرب وما ينوونه من احتلال لأهم المعاقل الإسلامية والعربية، خاصة وأنهم كانوا قد بدأوا نخرهم في جدار الخلافة العثمانية الظل الأخير للوحدة الإسلامية وخلافتها؛ لذا كان له دور في محاولة إنعاش مصر ماليًّا حتى يأخذ بيدها من هاوية الإذلال المالي لدولة غربية تريد أن تبرر وطأها البلاد وإثبات شرعية في ذلك.

ومن ناحية أخرى اهتم رياض باشا بالحياة السياسية والفكرية وأدرك وجوب إيقاظها حتى يتحرك الناس بدافع وطني ضد الخطر الآتي؛ وعلى هذا رأى رياض باشا في الأفغاني أنه الرجل المناسب والكفيل بأن يتحرك وسط الشعب المصري ويشعل الغيرة الوطنية والحمية الدينية؛ إذ لمس فيه قوة هائلة تدفع إلى الحركة والثورة.

جمال الدين في مصر

عندما وصل جمال الدين أرض المحروسة كانت الحكومة في انتظاره فرحبت به وهو الشيء الذي اعتاده في بداية نزوله كل بلد، ولكن تكون النهاية مختلفة تمامًا، كما سنرى هنا وفي أسفار آتية.

وفرت الحكومة المصرية للأفغاني مبلغًا ماليًّا يأخذه الأفغاني كراتب شهري وكان قدره ألف قرش شهريًّا، أي: عشرة جنيهات، وهو مبلغ كبير حينئذ، أيضًا وفرت له مسكنًا يأوي إليه ويستضيف فيه طلابه وذلك دون مقابل مادي، والبعض يقول: إنه سكن بالأزهر، ثم تركه، ويقال أيضًا: إنه كان ينزل بخان الخليلي أو بحارة اليهود.

مع الأزاهرة .. للمرة الثانية

يقال: إنه جرت مساجلة بينه وبين علماء الأزهر الذين كان له معهم شأن في زيارته الماضية، وكانوا سببًا رئيسًا في خروجه منها في زيارته تلك، وانتهت هذه المساجلة بنفرة قصدها علماء الأزهر الذين رأوا فيه دخيلاً عليهم يستطيع بما له من صيت وقوة علمية وشخصية أن ينافسهم على مواضعهم ومكاناتهم.

وعلى إثر هذا الموقف آثر جمال الدين السلامة هذه المرة، ولم يشأ أن يقصر مدته بمصر كزيارته السابقة فأخلى لهم الميدان، وتركهم يمرحون منفردين بذواتهم الملوثة، وانقطع بعد ذلك للتدريس في بيته، وفي الساحات البعيدة عن تطفل المتطفلين من أذناب الحكومة.

لم يتح للأفغاني أن يدرس في الأزهر يومًا واحدًا، حتى إنه عندما كان يذهب إليه كزائر فإنه كان لا يستطيع دخوله إلا أيام الجمع أي أيام العطلات الرسمية؛ حتى ينجو من أناس لا يحب أن يراهم، ولا يحبون أن يروه.

وفي هذا الموضع يشير الأستاذ أحمد أمين في معرض تحليله لسلوك جمال الدين - الذي بدا حصيفًا هذه المرة مع زمرة ممثلي رجال الدين - أن ذلك سببه تجربته

في الآستانة التي أظهرت له أين سيكمن متربصوه دائمًا؛ حيث سيكونون من بؤرة ميدانه؛ فهو لو كان رجل سياسة لنابذه أهل السياسة، ولو كان تاجرًا لنابذه أهل المال، لكن الرجل كان يعد رجل علم ودين؛ إذن فالطائفة التي انفلتت له هي طائفة العلماء ورجال الدين حيث رأوا فيه بدعًا، ومنافسًا شرسًا؛ لذا كان حذرًا هذه المرة في ردود أفعاله، وسلوكه تجاه أي استفزاز من ناحيتهم.

طلبة جمال الدين

كثيرًا ما كان التلاميذ هم سبب ثبوت قدم أستاذهم ورفع ذكره، وتقوية أثره، ونشر مذهبه، كذا مع الأفغاني بجاذبيته الخاصة المشهود له بها - حتى من أعتى خصومه - فقد كان يملك وسائل اتصال والتقاط لشغاف القلوب لا يمتلكها إلا صاحب هبة من الله وقبول في الوجه واللسان وقبلهما الروح.

لقد استطاع الأفغاني أن يجمع حوله شتات الشباب من طلبة العلم الذين تاهوا وسط الضبابية التي كان يعيشها شباب العلم والعلماء وحالة الانفصال عن المجتمع وآلامه وأحلامه، فتجد من يختلق اختلافًا ويدور ينشر إشاعات على داعية أو مصلح ما؛ كي يستفيد من زوبعة يثيرها حول مغضوب عليه من قبل الخديوي أو الإنجليز، أو يوجد لنفسه الخاملة ذكرًا بهذه الطريقة الذميمة.

وسط هذا الجو انتشل الأفغاني طلاب العلم من هذه الوهدة وطاف بهم في عوالم الواقع العملي، وسعى معهم للقيام بالوظيفة المنوطة بهم من إيقاظ المجتمع وتطبيب جراحاته وتطبيبها، مبتعدًا بهم عن طلاسم علمية لا تسمن ولا تغني من جوع، وفرضيات فارغة لا تمت للواقع بشيء بل تتنصل بنذالة من واقع الأمة المرير الذي كانت تعانيه، فأخذهم في خطى وثابة موقظًا فيهم حماس الدفاع عن الوطن والوقوف ضد الاحتلال وأعداء الوطن بما أوتوا من سلاح أيًّا كانت قوته فحتمًا سيكون مؤلمًا.

انطلق إليه الطلبة من كل حدب وصوب كصاحب ضالة وجد ضالته، فمضوا يستمعون إلى دروسه المتنوعة بحماس شديد وهو من جهته يتنقل بهم بين بساتين العلم يقتطفون من هنا زهرة ومن هنالك أخرى، فقرأ عليهم كتبًا مختلفة في الدين والفلسفة والتصوف، والنحو.

ولكن مهما طاف الأفغاني بين أبواب العلم النظرية بأنواعها لا يستطيع أن يفصل نفسه عن الحال التي فيها مصر ومن حولها أخواتها توائم الواقع الاستعماري، فحالاً ما يعرج على السياسة وأوضاع البلاد السياسية، ويحفز على التحرك الثوري لتحريك رواكد الأمة، لا سيما وهو مقيم في بقعة كانت معدة من قرون لقيادة العالم الإسلامي ثم ابتليت بحاكم طأطأ جبهتها للاحتلال الأجنبي، وسعى وراء كماليات حضارية تافهة جرت عليه وعلى بلده ذل الدَيْن وعار التبعية الاجتماعية والمادية.

فسعى الأفغاني إلى تحرير عقولهم من عقالاتها التي حجبت عنهم رؤية الكثير من حقائق بينة، وفضح أكاذيب ظنوها من عمر أنها مسلمات.

أما أماكن مجالسه العلمية فكانت معروفة لكل أحد، ويحكي عنه أحد معاصريه – وهو السيد سليم العنحوري – أنه كان من عادته لزوم داره طيلة نهاره يقرأ ويجول بأفكاره ويلتقط الخواطر حتى يعدها ويتحدث بها في مقامها، فإذا أقبل الليل أعد عدته وخرج متوكئًا على عصاه إلى ملهى قرب الأزبكية اسمه "قهوة البوسطة".

كانت المقاهي حينئذ من أفضل أماكن التجمعات والسمر فلم تكن هناك وسائل أخرى للتجمع والتحدث، فكان الأفغاني يأتي ويجلس على كرسيه وسط جموع الحاضرين متصدرهم وهم يحيطونه في نصف دائرة، يجلس على أطراف أوتارها اللغوي والشاعر والمنطقي والطبيب والكيميائي والتاريخي والجغرافي والمهندس والطبيعي، كل هؤلاء يرون أن الرجل يمتلك شيئًا مختلفًا غير الذي لمسوه في كتبهم وفيما تعلموه، حتى إن كل متخصص كان يحرص على أن يسأل الأفغاني في

تخصصه فيجيب الرجل الموسوعي، بشكل لا يوحي بالإعجاز بقدر ما يوحي بمدى قوة الرجل الروحية وقوة إرادته[1].

كان الأفغاني يمكث وسط طلابه ما شاء حتى إذا جن الليل لملم ثيابه وودع جلساءه ودفع من جيبه الخاص ثمن ما تناوله الآخرون معه، ثم يخرج عائدًا أدراجه إلى بيته الصامت الهادئ الذي يخلو من صراخ طفل أو همس أنثى.

نحو حياة نيابية .. حلم الأفغاني الذي لم يدركه

إن الناظر للواقع الإسلامي إبان اليقظة الأفغانية يرى أن الشعوب كانت مصابة بداء سرطاني عضال، إذا تمكن من روح المواطنين أذل أنوفهم، وأهان إنسانيتهم، ألا وهو التخيل المرَضي للسلطة الحاكمة ومدى نفوذها على النفوس، حتى يظنوا أنهم لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم، فلا اعتراض ولا استنكار أو حتى رفض بمجرد القلب وذلك أضعف الثوران.

رأى الأفغاني أن هذا البلاء قد حاق بالعقول المصرية حتى قيد ضميرهم الوطني، وأنساهم معنى الحرية والنفرة من الاستعباد، والعمل من أجل الاستقلال ورفع الظلم والحيف.

فمن جهة يجهلون حقوقهم المشروعة لهم سواء من المبادئ الإنسانية البحتة، أو حتى التي سقطت سهوًا في الدساتير الغربية التي جعلها حاكم البلاد المستغرب منهجًا وصراطًا مستقيمًا له.

ومن جهة أخرى هم أجبن من الوقوف لإعلان الرفض والشجب لظلم وقع عليهم، ولو كانوا على علم بحيفه وعدم دستوريته؛ لذا نستطيع أن نقول: إن الحياة السياسية خُدِّرت! إن لم نقل: قُتلت، ولم يعد هناك من يجرؤ على الخوض فيها.

---

(١) انظر: محمود قاسم ص٢٤.

لذا خطا الأفغاني خطواته الجريئة وأعلن وسائله التي ارتآها أصلح الطرق لإصلاح المفاسد والمضار التي ألمت بأمة ليس لها ذنب فيما حل بها سوى صمتها، فأراد أن يجعل لهم منابر يبثون من خلالها آمالهم ويكشفون عوار من ولوا عليهم أمام موليهم.

ويقول الأفغاني في معنى ذلك: حكم مصر بأهلها، إنما أعني به الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح؛ حيث إن القوة النيابية لأي أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس الأمة، وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لهما، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة من أحدثها(١).

وسائل الأفغاني في الصحوة السياسية

أولا: الخطابة:

مهارة الأفغاني وجل موهبته كانت تكمن في تلك السمة التي يسيطر بها على سامعيه ومشاهديه بأدواته الخطابية التي يحسن استخدامها وتوجيهها كما يريد، فلا يكاد يسمعه سامع حتى ينقلب حاله لما أريد له، ذلك لم يكن بوحي أو ولاية عند الله، لكن الرجل كان يتقن صنعته ويعلم أن جل أسلحته في ذلك الميدان؛ فاستطاع أن يلجه وينجح فيه باقتدار.

فمن ناحية العلم كان علمه موسوعيًّا يستطيع أن يخوض به لجج الموضوعات الحياتية على اختلافها وتنوعها؛ فيجذب إليه كل أذن شاردة.

ومن ناحية أخرى كان متقنًا لكثير من اللغات؛ فيستطيع أن يطوف بلسانه وهو منتصب على منبره بين أكثر من دولة وأكثر من هوية، فقد استطاع الأفغاني أن

(١) انظر: الأفغاني موقظ الشرق ص ٢٣٦- ٢٣٧، نقلاً عن الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٤٧٣، وانظر: محمود قاسم ص ٢٥.

يملأ ميدانه بكثير من المتعاطفين من العامة والخاصة بفضل خطبه الشائقة والموجهة صوب الهمِّ المعَانى.

ثانيًا: الكتابة الصحفية:

بالإضافة إلى الخطابة، أدرك الأفغاني أن الكتابة في الصحف هي الأخرى، وسيلة يسيرة للولوج المباشر إلى عقول العامة الذين شغفوا بالاطلاع على الصحف في هذه الآونة كنوع من التسلية والمتعة، وأيضًا منفذ للمعرفة والتثقيف؛ لذا كانت أكثر وقعًا في نفوسهم وأشد تحريكًا لشعورهم.

وعلى هذا عمل الأفغاني – رغم كل القيود – على التمهيد لإنشاء بعض الصحف، وكون لها فريقًا عرف فيه الحصافة والفصاحة والثقافة، وقبل ذلك الإخلاص لقضية التحرر السياسي.

ومن بين هؤلاء عهد الأفغاني إلى عناصر مبشرة من تلاميذه السوريين الذين رأى فيهم النجابة، وحب السير على طريقه، والشغف بما عنده من علم ومنهج دعوي جديد، وكان من أول أدوار هؤلاء التلاميذ أنهم أنشئوا جريدة أسموها "مصر"، واختُير لرئاسة تحريرها أديب إسحاق.

ومن خلال الواقع المشاهد وحساسية الأفغاني للحاصل حوله، رأى أن الإسكندرية أيسر في مصادر الأخبار وأكثر تسويقًا للعمل الصحفي وأحسن استقبالاً؛ لذا طلب من أديب إسحاق أن ينتقل إليها، وبالفعل انتقل أديب إسحاق إلى الإسكندرية برفقة جريدته الجديدة الصاعدة.

لم يكتف الأفغاني بهذه الجريدة بعدما رأى ثمرة انتشارها بين الناس وبدأ حركة سياسية ذات لون وطعم مختلفين؛ لذا طلب من صديقه سليم نقاش أن يسهم في إصدار صحيفة أخرى باسم صحيفة "التجارة"، وبالفعل تم إنشاء هذه الجريدة وبدأت نجاحاتها وانتشارها لاحقة بصاحبتها.

ولكي تُثرى هاتان الجريدتان الحديثتان؛ طلب الأفغاني إلى تلميذيه الإمام محمد عبده وإبراهيم اللقاني أن يمداهما بمدد أدبي يرفع من قيمتهما ويعززهما أمام الجمهور القارئ.

وبالفعل شرع الاثنان في الكتابة بمقالات متعددة الأغراض والاتجاهات؛ أدبية واجتماعية ودينية وسياسية بقدر استطاعتهما.

ومن جهته هو أيضًا اتجه جمال الدين إلى الكتابة في كثير من الموضوعات السياسية والاجتماعية، فكان ذلك عاملاً على إذاعة صيته وظهور أمره. وكان يكتب أحيانًا باسمه الحقيقي، وأحيانًا كان يوقع مقالاته باسم مستعار له مغزى ومعنى لطيف وهو "مظهر بن وضاح".

وهكذا – كما يقول الدكتور محمود قاسم – وضع الأفغاني الأساس لحركة أدبية في مصر كُتب لها أن تتطور في الشرق العربي بصفة عامة، غير أنه عُني بالسياسة أكثر مما عُني بالأدب.

ومن المشهور له في هذا الشأن مقالان ذاع صيتهما وأثرهما، فكان أحدهما خاص ببيان أحوال الحكومات الشرقية، وتفنيد ضعفها والخور الداخلي الذي تعانيه. أما الثاني فكان بعنوان "روح البيان في الإنجليز والأفغان". وقد آتت مقالاته ثمارها فور نشرها، وأحدثت هزة كبيرة في الأوساط السياسية المصرية والإنجليزية المحتلة.

ولقوة أثر هذه المقالات في الرأي السياسي الإنجليزي كتب "جلادستون" – وهو رئيس الأحرار في إنجلترا – يشير إلى خطر فكر جمال الدين الذي يبثه في كتاباته، ووصفه بأنه من قادة الفكر في العالم الإسلامي، الذي ينبغي أن يوقف.

فقد كان دأب الأفغاني في مقالاته أن يذكر المصريين بمجدهم الذي كانوا عليه ثم حالهم الذي آلوا إليه، فيثير في الأنفس حمية النفور من الاحتلال والرغبة في العودة إلى ماض مجيد، وذلك ما كان من أثره أن يقلق الاحتلال أيما قلق.

حتى إنه قال لهم في أحد خطاباته: لو كان في عــروقكم دم، وفــي رؤوســكم أعصاب تتأثر، فتثير النخوة والحمية، لما رضيتم بهذا الــذل، ومــا قعــدتم علــى الرمضاء وأنتم ضاحكون، تناوبتكم أيدي الرعاة، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة، لا حس لكم ولا صوت.

وبطبيعة الحال لم ينفك الأفغاني يهاجم رجالات الخديوي الذين كانوا سببًا فــي الواقع المرير الذي تعيشه مصر؛ فهم – من وجهة نظره – الذين سولوا للخــديوي إسماعيل أن يرهق مصر بالديون التي اقترضها كي يصيرها قطعة من أوربا.

ثالثًا: تكوين الحزب الوطني الحر:

كان الأفغاني يرى أن الشرقيين يحسنون تأليف الأحزاب السياسية لطلب الحرية والاستقلال غير أنه سرعان ما يدب الشقاق بين قادتها.

وكان يبحث عن سبيل يجمع به كلمتهم من الوجهة السياسية فلم يجد بــدًّا مــن الاشتغال العملي بالحياة السياسية.

وبالفعل اخترق عالمها بقوة كعادته مع كل مجال يخترقه وكان ذلك ابتداء مــن سنة ١٨٧٦، وأيضًا لم يجد بدًّا من إنشاء تنظيم سياسي يحمــل أفكــاره ومبادئــه وينتشر بها ويدعو إليها.

وكان هذا التنظيم هو تنظيم الحزب الوطني الحر الذي ظهر نشاطه علنيًّا فــي سنة ١٨٧٩، وهو الحزب الذي تكونت في صفوفه قيادات مصر السياسية والفكرية في ذلك التاريخ، بمن فيهم قيادة الثورة العرابية بمختلف أجنحتها وتياراتها.

الأفغاني ورحلة قصيرة مع الماسونية

لم يكن رجل بنشاط الأفغاني وتحركه العملي ليدع سبيلاً أو منبــرًا يــرى أنــه يستطيع أن يرسل منه رسالة أو يخطب من خلاله خطبــة، إلا واســتخدمه، وفــي عصره ظهرت الماسونية ببهرجها وشكلها الخادع فلم يتردد الرجل فــي الالتحــاق

بالنظام الماسوني الذي رآه – في البداية – يربط أعضاءه برباط الأخـوة المتـين، وكان انضمامه هذا في عام ١٨٧٨م، واستطاع الأفغاني – بما أوتي من حسن سيرة وقوة في الشخصية وحب للتفوق – أن يتدرج سريعًا في المراتب الماسونية، لدرجة أنه صار من أبرز رجالاتها بعد وقت قصير للغاية.

وهنا بدأت تتكشف له أمور عن الماسونية لم يكن يعلمها وهو لا يزال عـضوًا عاديًّا، فقد أدرك أن المبادئ الماسونية المثالية التي أعلنوها والتي جذبته لا تطبـق على أرض الواقع، وما هي إلا شعارات جوفاء تخلـو مـن أي عمـل أو حركـة إصلاح، بل على العكس ظهرت كأن لها يدًا طولى في عملية الاحتلال، ولم يدرك الأفغاني حينها جذورها وأهدافها الصهيونية التي افتضحت بمرور الزمن.

فذات يوم سمع الأفغاني في أحد المحافل خطيبًا يقول: إن الماسـونية لا تـزج بنفسها في السياسة؛ بل أولى بها أن تنصرف عنها خوفًا من بأس الحكومة وبطشها.

وهنا كانت صدمة الأفغاني الذي كان يشعر بمثل هذا التوجه ويلمسه في كثيـر من سياسة المحفل، إلا أنه لم يجد على ذلك برهانًا بينًا، فعندما سمع هذه الكلمـات ثارت ثورته ونهض يقول: كنت أنتظر أن أسمع وأرى في مـصر كـل غريبـة وعجيبة، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل بين أسـطوانتي المحافـل الماسونية.

ومنذ ذلك الحين كانت القطيعة بينه وبين المحفل الماسوني، وغادره غير آسـف عليه بعدما اكتشف الكذبة الكبرى التي عاشها وهو بين أعضائه المنمقين المتشدقين؛ حيث رأى أنهم ليسوا أحسن حالاً – إن لم يكونوا أسوأ – من عامة الناس.

فهم جماعة يعملون لمصالحهم الخاصة، وماسونيتهم المعلنة برموزها التجريدية الجذابة هم أنفسهم لا يفقهون عن تطبيقها شيئًا؛ حيث استخدموها – فقط – مجـرد طعم لاصطياد أشخاص بعينهم كي يثقلوا من وزنهم ويزيدوا أسهمهم أمام الـرأي العام المخدوع بهم، وأيضًا المثقفين.

المحفل الأفغاني الوطني

قد يكون الأفغاني قد خرج من المحفل الماسوني بثمرات طيبة استفاد منها في حياته العملية؛ حيث عمل فور مغادرة الماسونية، على تكوين محفل وطني مشابه، وبالفعل اتخذ خطواته العملية وجمع فيه طلابه ومحبيه والمؤمنين بأفكاره ومنهجه، حتى بلغ عدد أعضائه نحو ثلاثمائة عضو، وكان هو رئيسه[١].

عمل الأفغاني على الانتشار به في ربوع مصر وهيئاتها، وجعله أمله الأخير في الإصلاح والتغيير، بعد ما أمضاه من السنين في مصر دون أن يحقق ما كان يرنو إليه، لذا كان من خطة الأفغاني أن يقسم ذلك المحفل أو الحزب إلى شعب لكل منها تخصصه وهدفه وخدماته، فعلى سبيل المثال، كانت هناك شعبة من وظيفتها العمل على رفع شأن الضباط المصريين بتحقيق المساواة بينهم وبين الضباط الشراكسة، وذلك بالمناداة بمطالبهم بمختلف الطرق المتاحة وغير المتاحة، وأيضًا كون شعبًا للحقانية تعمل على فض النزاعات وإنهاء الخصومات، وأنشأ شعبة للمالية وأخرى للأشغال وشعبًا أخرى لبقية المصالح – وهو الأمر الذي أفاد منه الشيخ حسن البنا فيما بعد – وكان الهدف الأكبر هو رفع الظلم عن المصريين، الذي تعددت أشكاله والتي كان من أهمها الظلم الوظيفي حيث كان يميِّز بين الموظف المصري، وبين الموظف التركي؛ إذ كان المصري يتقاضى مرتبًا لا يزيد عن خمسة جنيهات لنفس الوظيفة التي يتقاضى لها التركي خمسة عشر أو عشرين جنيهًا.

علاقة الأفغاني بالخديوي توفيق

مع صعود التنظيم الفريد الذي شكله الأفغاني، واشتداد حركة المطالبة بالحقوق والنداء بإطلاق الحريات، وإتاحة فرصة المشاركة للشعب، زاد توجس الخديوي الذي كان يدرك أن هذا الرجل لن يهدأ إلا إذا نفذ ما يرنو إليه، ولكن عندما اشتد

---

(١) قد يكون هو نفسه الحزب الوطني الحر.

أثره ورأى القصر أن تأثيره سيدرك عرشه، بدأ في التفكير في الخلاص منه بالطرق التي ذكرناها منذ قليل.

من ناحيته أبدى الأمير توفيق – خديوي مصر فيما بعد – إعجابه الشديد بشخص الأفغاني وعمله ودأبه السياسي وسعيه المخلص للإصلاح، وقد يكون هذا الإعجاب وليد الموقع الذي كان يشغله توفيق كخديوي منتظر لم يستطع أن يأخذ فرصته حتى ذلك الوقت، وهو في انتظار اللحظة عينها التي ينتظرها الأفغاني حيث يسقط الخديوي إسماعيل وبطانته لكن مع اختلاف الغايات؛ لذلك طلب الأمير توفيق لقاء الأفغاني، فامتثل الأفغاني ووجدها فرصة للحديث مع خديوي مصر القادم، وفي اللقاء أكد له توفيق أنه يحب الخير للمصريين، وأنه يرغب في النهضة بمصر؛ ولكن ماذا يستطيع إذا كان الشعب خاملاً جاهلاً... فكان رد جمال الدين من واقع عمله الإصلاحي: ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص: إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري وأفواجه ينظرون به لسموكم، وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى.. يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم(١).

وأظهر توفيق أنه يقدر النصيحة وصاحبها، ووعده أن يعمل للإصلاح إذا جاء دوره في ولاية أمر مصر.

وقد استفاد الأفغاني كثيرًا من علاقته بتوفيق؛ حيث ازداد نفوذه وارتفع شأنه؛ إذ التف حوله رجال مصر من أصحاب المناصب الرفيعة، وأرباب القلم الذين أخذوا ينشرون آراءه السياسية والإصلاحية، ومن الأولين نذكر محمود سامي البارودي،

---

(١) انظر: الأفغاني موقظ الشرق ص ٢٤١، نقلاً عن الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٤٧٣.

وعبد السلام المويلحي وأخاه إبراهيم المويلحي، ومن الآخرين نشير إلى الشيخ محمد عبده، وإبراهيم اللقاني، وعلي مظهر، وأبي الوفا القوني من كتاب القاهرة، كما نشير إلى سليم نقاش، وأديب إسحاق وعبد الله نديم من كتاب الإسكندرية.

خطة تمهيدية لإقصاء الأفغاني

لم يكن لولاة أمر مصر وحاشياتهم أن يتركوا الرجل يثير الناس ضدهم ويفضح ما وري من سوءاتهم ثم يتركوه يفعل ما يشاء، بل بدأت الحيل والخطط تدبر بشأن إقصائه عن مصر وواقعها.

فكان أول ما فعلوه – كخطة كربونية مكررة وستكرر مع الرجل كثيرًا – أنهم حاولوا لفت أنظار الناس عنه وإخراجه من دائرة التعاطف الشعبي معه؛ فحيكت الخطة الخبيثة باستغلال كون الأفغاني رمزًا دينيًّا، وباستغلال حمية الشعب المصري للدين، فعمل الماكرون على اتهامه في دينه عن طريق جلاس موائدهم ممن يقال عنهم: علماء، فأوحى إليهم من على رأسهم البطحة أن يؤذوا الرجل في دينه.

وعلى الفور بدأت المعركة التي طالما خسر فيها الأفغاني الكثير، فذهب هؤلاء يطعنون في ديانة الرجل وعقيدته باتهامات مزيفة باطلة، ولكنهما الحقد والنذالة عندما يتمكنان من النفوس.

وقد بنى خصوم الأفغاني من العلماء خطتهم الهجومية عليه وفقًا لعدة أمور:

أولاً: الرجل – ويا لجرمه – يقرأ الفلسفة، وما أدراك ما الفلسفة! إنها عدو الدين ومضيعة المروءة، وضلال وخسران مبين، ومن ورائهم يقول الأمراء: آمين! .. ونسوا أن قوة الدين وعظمته لا تجعله في حلبة صراع مع العقل، كيف وهو يستمد كثيرًا من عظمته من خلال العقل والعقلانية في بناء الأسباب ثم رؤية النتائج، وهذه القضية كانت مطروحة منذ القرون الأولى للصحوة الإسلامية، وأزيل التعارض من قديم.

فالفلسفة علم كسائر العلوم بل من أجلِّها وأعظمها أثرًا، ما دامت توضع في إطارها العلمي السليم بعيدًا عن الشطحات الفكرية الجوفاء.

ثانيًا: نظريته في التوكل التي تقول بحتمية السعي والعمل، وأن الخيبة كل الخيبة والخسران كل الخسران لمن جعله توكله يجلس في انتظار هبوط الرحمات السماوية، وقوله بأن ذلك من أهم أسباب ضعف المسلمين وخورهم أمام أعدائهم الذين أخذوا بكل الأسباب العلمية والعملية فنجحوا وحصدوا التقدم والرخاء، أما من تبنى من المسلمين نظرية التواكل فقد ارتضى لنفسه ولأمته أن يقال عنها أمة الكسالى والخمل.

ثالثًا: أخذوا على الأفغاني أن بعض تلاميذه لم يكونوا متدينين، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فلو كان كل داعية لا يتتلمذ على يديه غير المتدينين ما فائدة عمله الدعوي وعلمه إذن؟ أيدعو المتدينين إلى التدين! ويترك غير المتدينين.

وفي هذا الصدد يعلق الدكتور قاسم قائلاً: أيًا كانت الأسباب الحقيقية التي دفعت العلماء الرسميين إلى عدائه، ومهما يكن من إخلاص هؤلاء في خصومتهم أو عدم إخلاصهم فيها، فإن حملتهم عليه لم تكن ذات خطر كبير أو أثر يعتد به. حقًّا يقال إن الشيخ عليش الكبير كان يروغ بعكازه على جمال الدين وتلاميذه في الأزهر. غير أن هذا المسلك إذا صح لم يكن ليحول دون شدة تعلق الناس به، وتلهفهم على قراءة ما يكتب، أو سماع ما يتحدث به[1].

حصاد الحركة الأفغانية في مصر

وضع الأفغاني يده على الداء المصري وحاول علاجه بصنوف الأدوية لكنه لم يفلح، فالاحتلال الاقتصادي تزداد وطأته ويؤذن باحتلال عسكري، والخديوي

(١) محمود قاسم ص ٣٧.

إسماعيل تائه لا يدري ماذا يفعل حيال المستنقع الذي أسقط شعبه فيه، بالإضافة إلى أنه لا يريد حكمًا نيابيًّا ولا ديمقراطية ولا شيئًا من هذا القبيل.

ومن جانبه يرى الأفغاني أنه لا أمل إلا في حياة نيابية حرة يستطيع الشعب المصري من خلالها أن يعبر عن همومه ويحل مشاكله، ويكون له الرأي الأقوى في تصريف شؤونه.

ومع اشتداد وطأة الواقع، انصرف الناس يدعون الله أن يخلصهم من سبب نكبتهم وافتقارهم وشتات أمرهم وشؤونهم الخديوي إسماعيل، بعد أن جر عليهم هذا البلاء، فجعلوا يتطلعون إلى عزله والخلاص منه، وبالفعل كانت إنجلترا وفرنسا تتطلعان إلى عزل إسماعيل في هذه الآونة، وكان نوبار باشا أيضًا - والذي كان سببًا في ديونه الباهظة - يسعى في أوربا لعزل إسماعيل، وقامت وجوه من الشعب بزيارة شريف باشا رئيس الوزارة يؤكدون له ولاءهم لتوفيق؛ لرغبتهم في أن يصعد إلى عرش مصر بدلاً من أبيه أملاً في التغيير وحماية أرض مصر من المتربصين.

وفي خلال ذلك اتصل الأفغاني بشريف باشا، ودارت بينهما محادثات، ونصح جمال الدين رئيس الوزارة أن يحمل إلى الخديوي إسماعيل رغبة الناس في أن يفارق العرش، وأن يفهمه أن فكرة مقاومة الإنجليز والفرنسيين عن طريق الحرب فكرة طائشة وغير مجدية، وبخاصة بعد أن انصرفت عنه قلوب المصريين كافة.

وفي تلك الأثناء خشي الأفغاني أن يطول الأمر دون أن يجني ثمرته المرجوة، فجالت بخاطره فكرة اغتيال إسماعيل والتخلص منه سريعًا لمناسبة الواقع وازدياد تذمر الناس؛ حيث سيستقبلون هذا الأمر بارتياح حتى ابنه توفيق نفسه، ويقال في ذلك: إنه اقترح على تلميذه محمد عبده أن يقوم هو بهذه المهمة.

ذكر الإمام محمد عبده هذا الأمر وتفاصيل ما جرى بينه وبين الأفغاني، وما فعله من أجل التنفيذ، حيث يقول في ذلك: ولكن كل هذا كان كلامًا نتهامسه فيما بيننا، وكنت أنا موافقًا الموافقة كلها على قتل إسماعيل، ولكن كان ينقصنا من يقودنا

في هذه الحركة، ولو أننا عرفنا عرابي في ذلك الوقت فربما كان في إمكاننا أن ننظم الحركة معه؛ لأن قتل إسماعيل في ذلك الوقت كان يعتبر أحسن ما يمكننا عمله، وكان يمنع تدخل أوربا.

لم يمض الأمر كما خطط له الأفغاني ومحمد عبده، فقد فوجئوا بقرار يأتي من الباب العالي من الآستانة في ٢٦ يونية ١٨٧٩، يقول بعزل الخديوي إسماعيل عن منصبه، وتولي ابنه توفيق.

كان الأمر بالنسبة للجميع فرجًا بعد ضيق، فاستقبلوا الأمر بسعادة وتفاؤل للآتي: فقد تحقق أخيرًا سعي سعت إليه قوى كثيرة وتم عزل رجل أضر بالبلاد أيما ضرر، وولي مكانه رجل من نسله كان عامة المصريين وكثير من مثقفيهم يتوسمون فيه الصلاح وحب الإصلاح في يوم العزل نفسه.

كان الخديوي – كما أوضحنا من قبل – قد قدم الوعود لجمال الدين بأنه سيسعى لتحقيق النهوض بالبلاد، وسداد الدين، ونشر التعليم، وتحقيق الحكم النيابي، حتى إنه قال في أول شهر له من التولي وقد أثرت فيه حماسة الجمهور الذي تحمس له وتفاءل بمجيئه: ولعلمي أن الحكومة الخديوية يجب أن تكون شورية، ونظارها مسؤولين فإني اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسلكًا لا أتحول عنه، فعلينا تأييد شورى النواب وتوسيع قوانينها، لكي يكون لها الاقتدار في تنقيح القوانين وتصحيح الموازين[١].

ولكن كان حديث توفيق حديث ليل، ذاب مع أول بصيص شمس، فقد رأى أن خريطة القوة وموازينها تحتم عليه ألا يتصرف وفق إرادة شعبه، بل الحكمة كل الحكمة أن يتصرف وفق إرادة حكومة بريطانيا وفرنسا، ذلك إذا كان يريد أن يبقى على كرسيه وإلا أدرك أباه.

(١) الوقائع المصرية – عدد ٥ يولية ١٨٧٩.

بالطبع خشيت الدولتان أن يخول لمجلس النواب سلطة تعديل الميزانية، ويبدأ في إقلاقهما بهدم ما مكثتا سنوات تشيدانه، وعلى هذا الوضع فضل الرجل الشريف شريف باشا أن يقدم استقالته من تلك الحكومة التي بدأت عهدها بحنث يمين وخيانة وعد، وكان ذلك في أغسطس ١٨٧٩.

تنفيذ الإقصاء ومغادرة الأفغاني لمصر:

ما كان لتوفيق بعد اتخاذ هذه الخطوات المخذية أن يترك الأفغاني يدور بعاره ويثير الشعب ضده، فكان على رأس قائمة أعماله خطة جيدة للتخلص من الأفغاني بأية طريقة، وأيًّا كانت النتائج، فتولى توفيق الوزارة بنفسه وأمر بطرد جمال الدين من مصر(١).

في مشهد سيتكرر في حياة الأفغاني تربص له زبانية توفيق وهو عائد ذات ليلة إلى داره بعد أن ختم ليلة سمر مع أصدقائه وتلاميذه، أحاطوه عند بيته وقيدوه ومنعوه من إصدار أي صوت أو محاولة التذمر أو الاستفسار، ودون أن يراه أحد اقتادوه إلى مقرهم فأقعدوه قليلاً يرهبونه وينبئونه بنياتهم السيئة نحوه، ثم أخذوه نحو محطة السكة الحديد، وأركبوه رغمًا عنه قطار السويس، ويقال في هذا: إن قنصل إيران في هذه المدينة رآه وكان يعرفه كزميل في الماسونية فعرف منه أن طريقه إلى الهند فعرض عليه مائة دينار فرفض قائلا: "احتفظوا بالمال فأنتم أحوج إليه، إن الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب".

ودع الأفغاني أرض مصر وهو يشعر أنه الوداع الأخير، فلن يستطيع العودة إلى مصر ثانية، وكان خروجه من مصر في أواسط شهر رمضان سنة ١٢٩٦، ٢٤أغسطس ١٨٧٩؛ أي بعد تولي توفيق بحوالي شهرين.

---

(١) انظر: محمود قاسم ص ٤٥، ٤٦.

وندع تلميذه ووريث دعوته المصري الشيخ محمد عبده يحكي لنا بأسلوبه أثر خروج الأفغاني من مصر على هذا النحو حيث يقول: لا ريب في أن الانزعاج بنفي جمال الدين كان عامًّا، والكدر كان تامًّا، ولكن جناب الخديوي أظهر سروره بما فعل، وتحدث به في محضر جماعة من المشايخ على مائدة الإفطار في رمضان، فأظهر الطرب الشديد بخروج جمال الدين على هذا النحو ، كما أنه كان فيه تشنيع جارح على من كانوا يجتمعون عليه، فنشره البعض، وأبت إحدى الجرائد نشره ...فعطلت، على أن هذه الشدة لم تزد الأفكار إلا حدة ولا الألسن إلا جرأة، ولا الإحساس بضرورة الإصلاح إلا نموًّا وظهورًا ولم تكن حكومة مصر كريمة في معاملته، فوصفته بالزندقة وسمته: ضلال الدين أو الأفغاني الأفاق، وقالت في المنشور الذي أصدرته لهذه المناسبة: إنها أبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية.. لإزالة هذا الفساد من هذه البلاد، عبرة للمعتبرين، ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين، البادي من أفعالهم الظاهرة، أنهم لا خلاق لهم في الدنيا ولا الآخرة.

غادر جمال الدين مصر ولم يغادرها فكره، فقد ترك في أرضها الخصبة نبتة نمت مع حوادث الزمان، وشهدت ثورات ودعوات، ونداءات ارتفعت برايات الحرية ومواجهة الظلم والطغيان.

الرحلة الخامسة
في الهند للمرة الثانية ..
ومعركة العقيدة الكبرى[1]
(أغسطس ١٨٧٩م)

كما حطت رحاله منذ ثماني سنوات على شاطئ السويس، اليوم يغادر جمال الدين الأفغاني ميناء السويس على سفينة متوجهة إلى بومباي، وكان ذلك في ٢٢ أغسطس ١٨٧٩، وبالطريقة عينها التي يترك بها كل بلد حل بها ترك الأفغاني مصر، فما زادته زيارته إياها إلا ثورة وحماسة وما زاده تركها على هذا الشكل إلا تجلدًا وصبرًا، لا سيما وأنه قد رأى حصاد ما قدم في نفوس استطاع أن يربيها ويغرس فيها العمل للأمة بكل ما توافر من طاقة.

فترك تلاميذ سيكونون أعلامًا وشارات بعد ذلك في دولهم، ومن ناحية أخرى لم يكن نفيه من مصر هو الحل الأمثل أمام من ظنوا أن المتاعب التي جنوها كانت من شخصه، بل كانت تخطت هذه المرحلة وصار كل من تعلم على يد جمال الدين جمالاً آخر، فما أفاد طرده الحكومة في شيء، بل على العكس زاد المعارضين حنقًا وثورة.

ولم يمض وقت طويل حتى خطط شباب بُذرت في صدورهم الثورة وقاموا بما رأوه واجبًا عليهم عندما سنحت الفرصة؛ فوضع عرابي خطوط ثورته التي اندلع لهيبها بقيامه ومعه عدد من رجال الجيش لوضع حد لتدخل إنجلترا وفرنسا، وإن كانت الثورة لم تنجح بسبب الخيانة، فقد أفاد منها الشعب المصري أيما استفادة ستظهر في التاريخ القريب.

---

(١) راجع في ذلك: حسن حنفي ص ٤٧وما بعدها، ومحمود قاسم ص ٤٩-٥٦، وزعماء الإصلاح ص ٦٣ وما بعدها.

محطات الأفغاني في الهند

كانت محطة الأفغاني الأولى في الهند هي حيدر آباد الدكن، اختارتها له الحكومة الإنجليزية التي أرادت أن تكبله بكل قيد يكون من شأنه حجب أثره عن الناس الذين تتوق أنفسهم لمن يحفزهم للنفرة في وجه الاحتلال الآثم، فحددت إقامة الأفغاني في هذه المدينة فليس له أن يفعل أي شيء إلا بإذن الحكومة، وجل ما هو متاح له من عمل هو أن يقوم بالقراءة أو استضافة بعض الخواص، حتى يظل مأمونًا جانبه، ولم تلبث هذه القيود أن زاد ثقلها مع قيام الثورة العرابية في مصر، وهنا خشيت إنجلترا على نفسها من تلك القنبلة التي تحويها الهند فنقلته سريعًا بعيدًا عن مسرح الأحداث واختارت له كلكتا وأرسلته إلى هناك، فمكث فيها حتى انتهت الثورة نهايتها المؤسفة.

نشاطات الرحلة

الأسلحة أنواع شتى، والمحتل الخبيث يعدد أسلحته، ويختار ما يناسب التوقيت، وما يستطيع به إسقاط ضحيته؛ ففي الدول المغربية التي احتلها الغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، مهد الاحتلال لنفسه في الاستقرار بأن سعى إلى مسخ الثقافة الإسلامية التي كانت أساس كل حمية وثورة عليه؛ فعمل على نزع الحجاب عن رؤوس النساء وتمييع التقاليد والقيم الدينية، وعندما حدث ذلك رأى أنه أوجد لنفسه صفًا يدافع عنه من داخل البيت المخترق وهنا قمة الانتصار.

مثل ذلك فعلت إنجلترا في الهند فالشعب أعاجم، مئات اللغات واللهجات لا يجمعهم لسان ولا قومية ولا حدود، لكن ما كان يجمعهم هو الدين الواحد؛ إذن كان من الغباء أن يهاجم المحتل غير الدين، فسنوا أسلحتهم، وبمداراة وتدرج استطاعوا أن يعبئوا بعض العقول التي تتبنى مكرهم.

ولكي يكون الأمر محكمًا كان الاختيار لا بد أن يكون من داخل الصف الإسلامي بل من علماء دينه، وهي فكرة لا تزال مستعملة في كثير من دول العالم

حتى الإسلامي نفسه، بل الإسلامي بالذات؛ حيث عملت إنجلترا على هدم ذاك الركن الذي يأوي إليه الجميع ولا يختلف عليه اثنان؛ فنشروا وباءً جديدًا اسمه الدهرية، وهو سُمٌّ مميت للعقيدة ينتزع من حياة المسلم معناها، فأسمى ما عند المسلم أنه قد يحتمل مشاق الدنيا وبلاءاتها، ويستقبل ضرباتها وبؤسها بصدر رحب بعد أن يعمل على مواجهتها.

لكن مع الدهرية والدهريين الإنسان مادة والكون جامد، حركته مادية كالحة، تحدث مصادفة، والإنسان يهلك وبعد الهلاك هو هباء لا شيء، فقط يدخل في أطوار جديدة داخل مادة جديدة؛ إذن لا جنة .. لا نار .. لا عمل صالح .. لا جهاد .. لا دعوة.

"عش يومك وانس غدك فليس لك غدا!" هذا ملخص الدهرية من وجهها السياسي والاجتماعي الذي أرادت إنجلترا أن تسكنه في قلوب المسلمين.

في البداية حاولت إنجلترا أن تجابه قوة الدين المتمكن من قلوب الناس بالتنصير، وكان لها في ذلك مكاسب أكثر وأضخم، لكنها وجدته أمرًا أقرب للمستحيل؛ فكل ما عند النصارى من مميزات هو عند المسلمين، وكل ما عندهم من نقائص هي ممحاة في الإسلام، وهم يحبون نبي الله عيسى ويبجلون السيدة مريم العذراء عليهما وعلى نبينا السلام، فقط يستطيعون تنصير حالات فردية بحيل خاصة، لكن أن يكشفوا الأمر علانية ذلك ما كان من شأنه أن يصل بالناس إلى أعلى درجات الاستفزاز.

لذلك دخلت المعركة من الباب الخلفي ونشرت هذه الفكرة ونجحت إلى حد بعيد؛ حتى شاع أمر الدهريين في البلاد الهندية، وإن كانوا لم يسيغوه من الجانب النظري، إلا أنه كان له واقع عملي في حياتهم هز كثيرًا من معتقداتهم.

الأسد الأفغاني يغادر عرينه

هنا جاء دور الرجل القابع رغم أنفه وراء جدارن سميكة يُخشى زئيره، وليس له حيلة فسلاحه الأمضى منزوع منه، وهو الحديث إلى الناس.

لكن جاءت فرصة أخرى يحسن جمال الدين البروز فيها؛ إنها الـورق والقلـم، فسريعًا ما وصلت استجارات الناس إلى قفص الأفغاني يريدون أن يدلهم على أمر هذه المتاهة ؛ أين البداية والنهاية، وكانت من هذه الرسائل ما أرسله السيد مولـوي محمد واصل المدرس بمدرسة الفنون بحيدر آباد – رسالة إلى الأفغاني في ١٩ من المحرم ١٢٩٨هـ – وقال فيها: يقرع آذاننا هذه الأيام صوت – "نيشر" – [١]، وإنه ليصل إلينا من جميع الأقطار الهندية؛ من الممالك الغربية والشمالية وأودة وبنجاب وبنغال والسند وحيدر آباد الدكن، ولا تخلو بلدة أو قصبة من جماعة يلقبون بهـذا اللقب، ويظهر لنا أن من يعلق عليهم هذا اللقب ينمو عددهم على امتـداد الزمـان، خصوصًا بين المسلمين، ولقد سألت أكثر من لاقيت عن هذه الطائفة: مـا حقيقـة النيشرية؟ وهل طريقتهم تنافي أصول الدين المطلق أو هي لا تعارضه بوجه مـا؟ فإن كانت هذه الطريقة من النحل القديمة فلم لم نعهد لها دعاة إلا في هذه الأوقات؟ وإن كانت جديدة فما الغاية من إحداثها؟.. ولكن لم يفدني أحد عما سألت بجـواب شاف كاف، ولهذا ألتمس من جنابكم العالي أن تشرحوا حقيقة النيشرية والنيشريين بتفصيل ينقع الغلة، ويشفي العلة، والسلام[٢].

منَ مضمون الرسالة نلمح خطورة الأمر ومدى انتشاره وسط الـشعب الهنـدي المسلم، حتى إن علماءهم تاهوا في تحديد كنهه وماهيته، ولذلك كان اللجوء لقامـة علمية أدركوا أن عندها الحل الشافي والنظر الثاقب في مبهمات الأمور.

ومن جانبه وجدها الأفغاني فرصة ليخرج من خلالها ما في صدره؛ فقام بتأليف رسالة رد فيها على الدهريين بشكل فلسفي قوي أدحض فيه فرياتهم وسمى رسالته: "الرد على الدهريين"، واستعان في ترجمتها بصديقه المخلص أبي تـراب، فـشفى صدره وأنار بصائر الناس.

---

(١) هي مصطلح محوَّر عن الكلمة الإنجليزية Naturalizm وهي بمعنى الطبيعـي أو المـادي أو كما عناها صاحب الرسالة: "الدهرية".

(٢) محمود قاسم ص ٥٣- ٥٤.

وجاء في ملخص رده في الرسالة:

محبي العزيز:

النيشر اسم الطبيعة، وطريقة النيشر هي تلك الطريقة الدهرية التي ظهرت في بلاد اليونان في القرنين الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح ؛، ومقصد أرباب هذه الطريقة محو الأديان ووضع أساس الإباحة والاشتراك في الأموال والأبضاع بين الناس عامة. وأيما ذاهب ذهب في غور مقاصد الآخرين بهذه الطريقة، تجلى له أنه لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية، وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية، إذ لا ريب في أن الدين مطلقًا هو سلك النظام الاجتماعي، ولن يستحكم أساس التمدن بدون الدين البتة.

وكان جمال الدين يؤكد في مجلة العروة الوثقى أن أكبر دعاة هذا المذهب هو أحد مسلمي الهند وهو أحمد خان بهادور، متهمًا إياه أنه كان أحد هؤلاء الذين أرادوا أن يصيبوا نفعًا خسيسًا بمساعدة الإنجليز لهم على تحقيق أهدافهم.

وبدأ هذا الرجل بتأليف كتاب يدعي فيه أن التوراة والإنجيل لم يحرفا، ولما لم يلق الكتاب صدًى ولم يصل الرجل لمبتغى أسياده من ذلك – حيث كان قد سبقه المستشرقون منذ زمن بطعناتهم في الإسلام ورسوله – عمل على أن يظهر نفسه كحامل فكر فلسفي جديد، فبدأ ينجح فساعده الإنجليز على فتح مدرسته[1].

الرحيل عن الهند

بدأ صاحبنا يقوم بدوره المأمول واستطاع أن يتخلص من كل قيد كعادته، والحكومة المحتلة كعادتها هي الأخرى لم تتحمل حركة الأفغاني وتوجست من مجرد إلقائه التحية على الناس؛ فقد تكون دعوة ضمنية منه لهم بالثورة!! لذا عندما

---

(١) هذا رأي جمال الدين في بهادور لكن مؤرخون آخرون نفوا عن أحمد خان هذه التهمة، منهم الدكتور محمود قاسم الذي قال عنه: إنه كان داعية إسلامي فاضل..

انتهت الثورة العرابية قالوا له: إن شئت فارحل عن كلكتا، وإن شئت فارحل عـــن الهند كلها.

وفي ظل القيود التي كبلته في الهند وفي كل بلد إسلامي محتل رحل إليه جـــاء قراره برحلة مختلفة الاتجاه هذه المرة، لا نستطيع أن نجزم بحكمة ما وراء اختياره لها لكن أرى أنه أراد أن يواجه الأسد في عرينه فانطلق في رحلة أوربية طويلة.

وكان أول اتجاهه كما هو متوقع إلى إنجلترا، وكان ذلك عام ١٨٨٣، حيث مر ببور سعيد في ٢٣ سبتمبر ١٨٨٣ وأرسل كتابًا إلى تلميذه محمد عبده يخبره بذلك.

لم تطل فترة إقامته بلندن فبعد شهور تركها وتوجه نحو عاصمة الاحتلال الثانية باريس التي كانت أكثر ملاءمة لنشر فكرته، خاصة لما بين إنجلترا وفرنـــسا مـــن تنافس على اقتسام أملاك الدولة العثمانية في مصر وشمال إفريقيا.

الرحلة السادسة

نحو أوربا

في باريس .. توثيق العرى بالعروة الوثقى(١)

يناير ١٨٨٣

بعد أن لفظته أراضي شعبه ودينه، كان عليه أن يجرب العمل في الأراضي الغربية التي تدعي المناداة بالحرية - وهي غارقة في وحل الاستعمار في البلاد الإسلامية - عساه يجد صدًى لصرخاته التي لم تجد مجيبًا يرضيه حتى الآن.

ولأن الرجل لم يكن له تلاميذ يلحقون به ويسلكون دربه ويستطيع أن يكمل بهم مشواره الوعر، تذكر على الفور ذلك الشاب الفذ الذي رأى فيه النجابة والقلب الذي يستطيع أن يعي ويحمل ما يحمله هو؛ إنه الشيخ المصري محمد عبده، الذي كان من أنجب تلاميذه وأكثرهم حماسة لطريقته وطبيعة منهجه، لذا فور استقراره في باريس أرسل إلى محمد عبده يدعوه أن يلحق به.



جمال الدين الأفغاني
بالزى الأوربي مع الطربوش.

(١) راجع هذه الرحلة في : جمال الدين الأفغاني لعبد القادر المغربي ص ١٥ وما بعدها، وزعماء الإصلاح ص ٧٦- ٧٩، ورواد الوعي الإنساني ص ٢٠، ٢١، وجمال الدين الأفغاني موقظ الشرق ص ٦٧.

وقد كان محمد عبده هو الآخر يتعرض لمحنة النفي على إثر الثورة العرابية؛ حيث اتهمه الإنجليز بأنه كان عضوًا ضالعًا فيها بما أثاره من أفكار وإن لم يكن مشاركًا فعليًّا؛ وعلى هذا كان قد حكم عليه بالنفي ثلاث سنوات، حيث غادر مصر في ١٣ صفر ١٣٠٠هـ، ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢م، واتجه إلى بلاد الشام حيث نزل إلى بيروت(١).

ومن جانبه بدأ محمد عبده يراسل أستاذه ويبث إليه همه وهموم الدولة الإسلامية التي أرضاها حالها وقنعت بالاحتلال، وليس في أيدي المصلحين شيء يفعلونه؛ فطلب منه الأفغاني أن يحضر عنده ليشاركه في عمل ذي جدوى يقدمونه بعيدًا عن العويل والنحيب، وبالفعل عندما سنحت للإمام محمد عبده الفرصة أسرع إلى باريس لاحقًا بأستاذه.

مع العروة الوثقى

وهناك بدأ العمل الذي يتقنه الشيخ الأفغاني ولم يجربه الشيخ محمد عبده من قبل؛ حيث اشتركا مع مجموعة من مسلمي الهند ومصر في تأسيس جمعية إسلامية سميت بجمعية العروة الوثقى، وكانت هذه الجمعية سرية، ولم يكن قانونها مكتوبًا.

وكانت الجمعية تهدف إلى إعادة عزة الإسلام ومجده وتطهير عقائده مما شابها، بالعودة إلى سيرة السلف الراشدين، وبالتالي طرد كل غريب لإفساح المجال كي يحكم الإسلام في أصحابه، وهو ما عبرت عنه جريدة العروة الوثقى(٢).

صدر العدد الأول منها في ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ - ١٢ مارس ١٨٨٤م، ووزعت الأدوار كل حسب ما يحسنه؛ فكانت جميع الأفكار والابتكارات صاحبها جمال الدين، أما الصياغة التي أتقنها وفذ فيها محمد عبده فكانت تخصصه.

---

(١) يعارض ذلك ما قاله قاسم منذ قليل من أن جمال الدين أرسل إلى محمد عبده من بور سعيد، وقد يكون هناك خيط مفقود في خط السير..

(٢) انظر: محمود قاسم ص ٥٧.

ومن الناحية الوظيفية كان جمال الدين مدير الجريدة ومحمد عبده رئيس تحريرها، وكان يعاونهما في عملهما ميرزا محمد باقر[1]، وهو شخصية مهمة قيضها الله لهذا الثنائي فأفادهما أيما إفادة، وكان قد ارتد عن الإسلام في إحدى هنات حياته، ثم تاب وأناب وأراد أن يكفر عن هذه الزلة العظيمة، فسارع لمعاونة الشيخين فيما يفعلانه، وكانت مهمته هي متابعة كل ما يكتب في الصحف الأجنبية وله صلة بالعالم الإسلامي، وذلك لإجادته كثيرًا من اللغات.

وقد توالى صدور العروة الوثقى بتطور شهرًا بعد شهر ووجد لها جمهور من الصفوة كان متابعًا لها، وكانت هذه الجريدة تمثل لسان جمعية العروة الوثقى التي أنشئت سرًّا، وقد لخصت الجمعية أهدافها في عددها الأول، على النحو الآتي:

١- ستضع الجمعية نفسها في خدمة الشرقيين، ببيان الواجبات التي يلزمهم القيام بها، والتي كان التفريط فيها سببًا في تدهورهم، وبتوضيح الطرق التي يجب اتباعها لتدارك الأخطاء الماضية، ولتجنب المصاعب والكوارث في المستقبل.

٢- ويتبع ذلك أنها ستبحث معهم في الأسباب والعلل التي دعت إلى ضعفهم، إلى جانب تفريطهم في تعاليم دينهم.

٣- كذلك ستكشف الغطاء عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين، وتزيح الوساوس التي سيطرت على عقول المنعمين، مما أدى إلى اليأس من الإصلاح والقنوط من تلافي الأخطاء الماضية.

---

(١) كان هذا الرجل قد تعلم في مدارس الهند الإنجليزية فتنصر وهو صغير وسمي ميرزا يوحنا، ثم صار ترجمانًا لمشير الجيش وذا سطوة فأخذ يهجو الإسلام والرسول، حتى جاء الأفغاني وتصدى له وحرض على قتله، ودارت الأيام وذات يوم والأفغاني في لندن جاءته رسالة مدبجة بالحمد والصلاة على النبي وموقع عليها باسم محمد ميرزا الباقر، فاجتمع به الأفغاني وسعد بتوبته وأشركه في دعوته. (انظر تفصيل قصته في كتاب عبد القادر المغربي ص ٥٦- ٥٨)..

٤- وستحاول أن تحيي الأمل في النفوس، وتبين أن طريق النهوض ليست بالطريق الوعرة التي توجب فتور الهمة أو خور العزيمة.

٥- وستبدي الجريدة اهتمامًا خاصًّا بالرد على التهم التي توجه إلى الشرقيين على وجه العموم، أو إلى المسلمين بصفة خاصة.

٦- ولن تهمل الجريدة إطلاع الشرقيين على الأحداث السياسية العامة، لكي يروا ماذا يدبره السياسيون الأوربيون في أمرهم، ولكي يعلموا في أي عالم يعيشون، وحتى يصبح خداعهم أو تضليلهم أمرًا لا سبيل إليه.

٧- وأخيرًا ستعمل الجريدة على تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية، مع بيان المنافع المشتركة بينها، وعلى مناصرة كل سياسة خارجية من شأنها ألا توقع حيفًا بالشرقيين.

مصادرة الجريدة ومنعها

لم تقو العروة الوثقى على الاستمرار؛ فقد وقفت أمامها الحكومات الهندية والمصرية والإنجليز في كلا البلدين ومنعوها، وجعلوا اقتناءها تهمة يعاقب عليها بالحبس أو الغرامة.

وكان منعها بعد صدور ١٨ عددًا منها، وكان ذلك في ذي الحجة سنة ١٣٠١هـ، وكانت التهمة مختصرة في أنها تناهض الاحتلال الإنجليزي للبلاد الإسلامية.

فقد أدرك مراقبو الحركة التحررية الإسلامية - لا سيما الكتاب الإنجليز - أن العروة الوثقى دعوة وئيدة للثورة والانقلاب على الاحتلال، وهي تلاقي رواجًا عند الصفوة من المسلمين وكل الشرقيين التي وطأت بريطانيا ساحات أوطانهم، فأوحى هؤلاء الكتاب إلى حكومتهم بمحاولة عرقلتها والحيلولة دون دخولها مصر أو الهند

حتى لا تثير الشعوب ضد إنجلترا، وعلى الفور أوعزت الحكومة الإنجليزية إلى أمَتِها المطيعة الحكومة المصرية بأن توقف نشر هذه الجريدة.

وبالفعل تولت وزارة الداخلية المصرية الأمر فأرسلت إلى مصلحة البريد أن تتشدد في مراقبة الرسائل، وتبلغها عن أسماء من ترسل إليهم جريدة العروة الوثقى، وبلغت الغرامة التي أوقعتها الداخلية على من تضبط بحوزته العروة الوثقى ما بين خمسة جنيهات إلى خمسة وعشرين جنيهًا، وهو مبلغ كان يعتبر ثروة في هذه الفترة، ثم منعتها إنجلترا كذلك في الهند، ثم تقدموا بتبجح إلى الحكومة التركية طالبين منها أن تصادرها في بلادها وفي الولايات التابعة لها، وبتبجح أكثر نفذت الحكومة العثمانية رغبة إنجلترا، ولم يترك الإنجليز وسيلة في محاربة هذه الجريدة حتى أفلست، وتوقفت وهي لم تكمل عامها الأول.

موضوعات العروة الوثقى

حاولت العروة الوثقى أن تكون الناطق بكلمات أُخرس القائمون عليها عن قولها، فتعرضت خلال فترة وجيزة لكل ما كان يشغل بال الأفغاني ومحمد عبده، فقد كانا يعلمان جيدًا أن الفرصة المتاحة لهما قصيرة؛ لذا عالجوا على صفحاتها موضوعات حيوية للغاية، مثل: مشروع الجامعة الإسلامية والذي أخذ نصيبًا وافرًا من فكر الأفغاني وكان تطبيقه في غاية الأهمية، وكان يعد حلاً شافيًا لأزمة الأمة الإسلامية التي كانت تعاني التشرذم والانقياد لقيادة صورية لم تشكل سوى وحدة هيكلية فارغة لا تسمن ولا تغني من احتلال وضعف وخور، وسنفرد لهذا الموضوع إطلالتنا على أفكار الأفغاني ومنهجه الإصلاحي في الفصل الأخير.

أيضًا أفردت الجريدة جزءًا لما يخص الروابط الشرقية التي تجمع العالم الإسلامي بجيرانه من غير المسلمين، كدعوة التعاون، والخروج من الهم المشترك المتمثل في الاحتلال، والانتكاس السياسي والاجتماعي والفكري.

وبالطبع تعرضت الجريدة لطبيعة الاحتلال في كل دولة على حدة وهاجمته بطريقتها الأدبية الرائعة وأوصلت لقرائها ما تريده من خلف السطور، ومن النماذج التي نوردها كإشارة إلى الأدبيات الرمزية التي وردت بالجريدة ما جاء فيها تحت عنوان أسطورة الزنجي وهي قصة كربونية عن واقع المصريين مع الإنجليز.

تقول الأسطورة إن زنجيًا أسود هائل المنظر غليظ الشفتين مقلوب المشفرين جاحظ العينين، أحمر الحدقتين، بشع الوجه، أفطس الأنف، منكر الصورة، كان يحمل ولدًا في ليلة مظلمة يسير به في زقاق من أزقة بغداد، والولد - كلما نظر إليه - يفزع ويبكي وينتحب ويصيح ويعول، وكلما اشتد به الفزع ربته الزنجي ومسح ظهره، وقال له: لا تخف يا ولدي فإنني معك وأنيسك وحافظك من كل شر، وبعد تكرير هذه الملاطفات من الزنجي للصبي قال الصبي: يا سيدي إنما خوفي وفزعي منك لا من وحشة الظلام[1].

إنجلترا تعين الأفغاني سلطانًا على السودان[2]

إنها دائرة تدور مسرعة، الغرب على أطرافها والعرب رضوا عن كسل وخنوع أو عن جبر وذلة بالمكوث على محورها، تبادلوا مواقعهم على حدودنا ونحن لا نعتبر بدولة الأيام ولا بصرخات السنين ولا بنصح الزمان العجوز فتكبو خطانا في حفرة سبقنا فيها إخوة لنا، صاحوا فينا بالحذر لكننا نسقط وكأننا نهوى الهوي.

فها هي خريطتنا وها هي دولنا: العراق، فلسطين، أفغانستان، السودان، الخليج، مصر، وعدَّ كل الدول العربية والإسلامية، إنها نفس الصورة، ونفس الخطوط السوداء على الخريطة، العدو على خطوط الدائرة عرضًا وطولاً، ونحن على المحور ندور حول ذواتنا وهم يدورون مثلنا ولكن من حولنا، حتى يصيبنا الدوار ويلقونا أو يُلقينا الزمان خارج الدائرة.

(١) جمال الدين الأفغاني لعبد القادر المغربي ص ٢٣.

(٢) انظر: محمود قاسم ص ٦٥، ٦٦.

فبريطانيا أمعنت في وضع الخطط للتخلص من ذاك الرجل المشاغب فقام دبلوماسيوها – وكان منهم اللورد سالسبري وراندولف تشرشل ودراموند وولف – يعرضون على الشيخ الأفغاني أن يولوه سلطانًا على السودان المحتلة – والتي كانت مصرية حينها – ففيها المهدي المقاوم والمتطرف الإرهابي في نظرهم، يريدون من الأفغاني أن يقضي عليه.

هنا تتضح الصورة ويبرز وجه التشابه والرابط بين الكلام المتناثر السابق، فهذا ما فعلته أمريكا في العراق وأفغانستان والسودان، مع اختلاف الأسماء وصور الرجال.

قال اللورد سالسبري لجمال الدين بعد أن أوضح له أنهم استطاعوا أن يقضوا على ثورة المهدي: تصورنا أن نرسلك إلى السودان بصفة سلطان عليه، فتستأصل جذور فتنة المهدي، وتمهد لإصلاحات بريطانيا!

الرد المتوقع من الأفغاني ونظن أن اللورد كان قد توقعه، هو ما قاله الأفغاني بحزم واختصار: السودان ليست كلأ مباحًا لإنجلترا حتى تمنح عرشه لمن تشاء.

الإحباط يصيب تلاميذه

العزيمة هبة من الله، يعطيها من يشاء ويسلبها من يشاء، وعند البعض تكون مؤقتة، وعند القليل تكون شعلة سرمدية لا تنطفئ إلا بانطفاء الروح، فرغم ما لاقاه الأفغاني من صد وعنت وطرد وتجويع وأحقاد، وإذلال، لم يلتفت ولم تفتر عزيمته، وزادته البلاءات وميضًا وشموخًا وتجلدًا، لكن كما قلنا العزائم لا تورث؛ لذا عندما رأى محمد عبده وأقرانه من أتباع الرجل ما يلاقيه من عنت في كل خطوة يخطوها، ولم يروا ثمرة العمل تنمو في التو بين أيديهم؛ قرروا الانسحاب من الميدان، فالعالم الإسلامي تزداد حالته سوءًا يومًا بعد يوم بل ساعة بعد ساعة ولا جدوى لأي تحركات.

فها هي الثورة العرابية التي أمّل عليها الكثير تفشل وينكسر معها أصحابها بأياد خائنة، والثورة المهدية كأختها العرابية، أفشلها الإنجليز وبدأوا يبسطون أيديهم على جنوب الوادي، وهكذا لملمت الآمال والأحلام ثيابها وبدأت في الانسحاب من قلوب أصحابه، وخذل الأفغاني عندما رأى حالهم هكذا خاصة أقربهم إليه.

ولم يمض وقت طويل إلا وقد انفض عنه معظم أنصاره، حتى الشيخ محمد عبده اختلف معه وتركه بعدما طلب منه أن يتركا باريس ويتركا العمل في السياسة كلية، ويتبعا منهجًا جديدًا ليس فيه هذه الأشواك، يكون منهجهما فيه أن يعلما جيلاً جديدًا في نطاق محصور لا تراقبه أعين المحتل ودون الدخول معه في معارك صريحة، وذلك بأن يختارا عشرة تلاميذ من الأذكياء، فيعلماهم كيف يحملون رسالة الإصلاح من بعدهما وينشرونها؛ بأن يعلم كل واحد منهم عشرة آخرين، وهكذا يمكن تكوين مائة من القادة.

لكن الكلام لم يعجب رجلاً بدأ رحلة وقرر أن تكون نهايتها بإصلاح تـام يـراه أمام عينيه حيًّا أو ينتهي هو شخصيًّا؛ لذا قال لمحمد عبده غاضبًا عنـدما عـرض عليه هذا العرض: أنت مثبِّط، وقد شرعنا في هذا العمل، ولا بد لنا من المضي فيه ما دمنا نرى منفذاً.

فعلم محمد عبده أن ساعة الفراق قد حانت، فقرر مغادرة باريس وتوديع أستاذه متجهًا نحو بيروت، وهناك حاول إصلاح التعليم فلم يفلح فازداد يأسًا على يأس، ثم رجع إلى مصر في أوائل سنة ١٣٠٦هـ، وترك السياسة ومضى يلعنها ويقول إنه لولا ثورة عرابي والأفغاني ما عمل بها.

وهكذا خلا عرين الأسد إلا منه، فلم يثبطه ذلك عن صيده ولم تهتز همته، وحمل متاعه كي يستكمل رحلته التي كتب عليه أن يرتحلها وحده، ومضى ناعيًا الهمم.

قرر الأفغاني أن يعاود الوطء في دول الإسلام لعلها تنقذه من وحشته، واختارت له الخريطة القدرية أن يتوجه إلى إيران.

الرحلة السابعة

في إيران .. تجربة جديدة(١)

لا نقول إن العالم كله قد سمع عن الأفغاني ووصل صيته أقاصي الأرض وأدانيها، لكن بالتأكيد كان الأفغاني نجمًا في كل دولة وضع أقدامه فيه - أوربية كانت أو إسلامية، لذا كان الأفغاني في زمنه رمزًا وواجهة لائقة تطمع أي دولة في استقطابه، فلما أشيع عن الرجل أنه إيراني أراد الشاه الإيراني أن يقدم هدية إلى شعبه، ولم يكن هنالك إهداء أجمل من الأفغاني، لذا أرسل إليه شاه إيران برقية عاجلة، وطلب منه أن يحل ضيفًا على إيران ووعده بتوفير كل ما يطلبه.



جمال الدين الأفغاني بزي رجال الدين الشيعة.

حال إيران كأخواتها

كانت إيران في ذلك الوقت تحت حكم الشاه ناصر الدين (العاهل الرابع في أسرته) وقد تولى العرش بعد وفاة أبيه في ١٣ أكتوبر ١٨٤٨، وكان ناصر الدين - على حد وصف إحدى الباحثات - طاغية لا يثق في أحد، يحب المال، اغتال أول رئيس لوزرائه (ميرزا طاغي خان) وقتل العديد من أتباع الباب (محمد علي

(١) انظر: علي شلش ص ١٢٤، ١٢٥، والأفغاني موقظ الشرق ص ٧٢، ومحمود قاسم ص ٦٦- ٦٨.

الشيرازي) وكان قد ظهر في عهد أبيه وادعى أنه المهدي المنتظر، أو الإمام الثاني عشر الذي اختفى في عقيدة الشيعة وهم ينتظرون عودته.

وكانت السنوات العشر الأولى في حكم ناصر الدين شاه قد شهدت سلسلة مـــن الحروب ضد التركمان وأفغانستان وإنجلترا، وانتهت بالتغلغل الأوربي في إيـــران، واتخذ هذا التغلغل صورة الامتيازات التي حصل عليها الإنجليز والــروس بــصفة خاصة، مثل امتياز مد خطوط التلغراف والسكك الحديديـــة، وامتيـــاز اســـتغلال الغابات والمناجم، وامتياز تأسيس البنوك وكلها للإنجليز، وامتياز إنشاء الطرق في شمال البلاد وتنظيم الجيش للروس، حتى قال وزير خارجية إيران ذات مرة: كـــان علينا أن نطلب تصريحًا من الحاميتين الروسية أو الإنجليزية إذا أردنـــا الخـــروج للصيد في الشمال أو الشرق أو الغرب من بلادنا[١].

باختصار كانت إيران هي الأخرى ساقطة في مستنقع الاحتلال غيـــر المباشـــر الذي استغل مواردها بابتزاز ونذالة، والشعب خاضـــع خـــانع بخـــضوع الحـــاكم وخنوعه.

نحـــو إيران

وجد الأفغاني الطلب الإيراني فرصة طيبة جاءت في موعدها؛ كي يخرج مـــن شباك الوحدة والأثر النفسي الصعب الذي صحب تخلي أعز أصدقائه عنه، فاتجـــه نحو إيران في جمادى الأولى ١٣٠٣هـــ/ ١٨٨٦م، فلما بلغها لقيه الشعب الإيراني لقاءً حارًا وخرج إليه الشاه فاستقبله استقبالا طيبًا واحتفى به حفاوة كبيرة وأكرمه، وكان لديه مكينًا فلم تمض إلا أيام قلائل اختبر فيها الشاه سريرة الأفغـــاني وأخـــذ يدنيه أكثر وأكثر ويعلي من شأنه ويستشيره، ثم نصبه وزيرًا للحربية، ولـــم يـــدر الشاه يومًا أن الأفغاني سيكون سبب موته! أو على الأقل سبب تعبه وقلقه المستمر!

---

(١) علي شلش ص ١٢٥- ١٢٦.

وكالعادة يجري نفس السيناريو مع الأفغاني، فالرجل شخصية إعلامية من الطراز الفريد، لا يكاد يمكث في مكان إلا ويلتف الناس حوله لمهارته في التحدث والخطابة، وجرأته وطرحه لقضايا تهم الناس وتستفز الحكام وذيولهم، فلم تمض شهور حتى صار الأفغاني نجمًا إيرانيًّا؛ فهو محط الأنظار والأسماع أينما نزل أو حل؛ لذا وجد الحاقدون بوازع من ضمائرهم أن يقوموا بدورهم المنوط بهم، فينصحوا الحاكم الطيب عما يخبئه له الوافد الشرير، فأشعلوا الخوف والقلق في قلب الشاه الذي كان يدري أين هو في قلب رعيته، وسار التوجس في قلبه ولا يلام، فالحاشية تستطيع أن تقلب الملاك إبليسًا في عين الحاكم ما دام قد سلم آذانه لهم.

فكان كلما قويت شعبية الأفغاني وعلا ذكره عصف القلق بالشاه، واهتز من تحته كرسيه، فأخذ ناصر الدين يتوجس من الأفغاني ويظهر ذلك في تصرفات تجاهه تضايقه، ولأن الأفغاني صار ماهرًا في اكتشاف ما يحاك حوله من مؤامرات؛ أدرك أن الشاه سيزداد توجسًا مع الأيام، وسيكون لذلك نتائج قد تكون هوجاء، فما كان منه إلا أن آثر السلامة، واستأذن الشاه في مغادرة إيران فتنفس الشاه الصعداء، ووافقه على الفور فحمل الأفغاني متاعه الذي أتعبه معه، وهذه المرة كانت النية متجهة إلى روسيا. وكان ذلك في عام ١٨٨٦[١].

---

(١) عرض صاحب كتاب "حقيقة الأفغاني" طريقة مغادرته لإيران بشكل مختلف؛ حيث كلفه أحد الوزراء بالسعي بينه وبين روسيا وفعل ونجحت مساعيه، وعندما عاد حقد عليه الوزير وأوعز إلى الشاه أنه فعل هذا من عند نفسه، كأنه يتهمه بالعمالة ثم خرج الأفغاني من إيران (انظر: ص ٢٢).

الرحلة الثامنة

في روسيا ..الأفغاني يعظ القيصر[1]

لا أدري هل كان الأفغاني يختار المحطات التي يهبط فيها عن قصد وتعمد وهدف يريد تحقيقه، أو هي فقط الأقدار التي تحمله وتضعه أينما شاءت دون سعي منه، وما يجعلني أندهش أن دورة الرجل في العالم هي دائرة تكاد تغلق بزيارته لروسيا، وكأنه يريد أن يُشهد الكرة الأرضية على سعيه، ويشهد الزمان أنه ليس كما سيقال عنه.

اختار الأفغاني الهبوط في بطرسبورج عاصمة روسيا - تحديدًا - لعدة أسباب كما يرى من ترجموا له:

السبب الأول: أنه ظن أنه ربما استطاع مناوأة الإنجليز وتحطيم مشروعاتهم الاستعمارية في الشرق لو قدر له أن يكسب عدوهم اللدود روسيا إلى جانب قضيته، وسعيًا لتحقيق هذا الهدف قام الأفغاني بكتابة عدة مقالات في الصحف، عرض فيها لبيان الاتجاهات السياسية في بلاد الأفغان وفارس والدولة العثمانية، وأفرد بعضها لنقد السياسة الإنجليزية، غير أن آماله في هذه الناحية أتت على خلاف قصده؛ ذلك أن الأزمات التي كانت بين تركيا وروسيا شتتت جهود تركيا ومناوأتها إياها مما أفاد إنجلترا وفرنسا، فقد استطاعت الدولتان أن تقسما أملاك آل عثمان.

والسبب الثاني: أنه أراد أن يخفف وطأة ما يشعر به المسلمون في بلاد القيصر من عسف، فقد كان في روسيا جالية إسلامية كبيرة تبلغ قرابة ثلاثين مليون نسمة، لاقوا اضطهادًا لم يلاقه المسلمون منذ أيام قريش، وكانت الحكومة

---

(١) راجع: حقيقة جمال الدين الأفغاني - د/ عبد النعيم حسنين ص ٢٢، جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق ص ٧٢، ٧٣.

الروسية تعاملهم كعبيد أو أسرى حرب، وتراهم شوكة في حلقها، وترى دينهم المتنامي خطرًا محدقًا بهما.

وكان مما قام به الأفغاني أن طلب إلى حكومة روسيا أن تسمح لمسلميها بطبع المصحف ونشر بعض الكتب الدينية، وبعد محاولات واستخدام طرقه الدبلوماسية استطاع أن يحصل على موافقة القيصر فيما أراد، وكان ذلك سبب تعرف القيصر عليه وإعجابه بدبلوماسيته، حيث رغب في رؤيته ودعاه إلى قصره، وبدأ يسأله عن أحوال إيران، وعن سبب خلافه مع الشاه، الذي جعله يأتي إلى روسيا، وهي الدولة التي بينها وبين المسلمين أزمات، ويقول الدكتور قاسم في ذلك: كان قياصرة الروس يطمعون فيها، ويفكرون في احتلالها؛ حيث كان تدخل الروس في شؤون إيران يسير جنبًا إلى جنب مع تدخل إنجلترا فيها من أواخر القرن الثامن عشر، وفي عهد ناصر الدين شاه – الذي كان يشبه إسماعيل في بذخه وإسرافه – زاد هذا التدخل حدة من جانبي روسيا وإنجلترا على حد سواء، وقد حدث أن اتفقت إنجلترا وروسيا فيما بعد على تقسيم مناطق النفوذ في إيران بمعاهدة ١٩٠٧، التي خصصت القسم الشمالي من إيران لنفوذ روسيا، والقسم الجنوبي منها لنفوذ إنجلترا.

وفي الواقع كان خروج الأفغاني مغضبًا له كسائر رحلاته السبعة السابقة، وكان لذلك أثره في نفسه يبدو جليًّا عندما كان يطلب منه الإجابة على أسئلة خاصة بإيران وشاهها، فقد أخذ يكشف لقيصر روسيا – بحكم أنه كان وزيرًا في دولة الشاه – حجم الاستبداد والعسف في سياسته.

وهنا نقف قليلا كي نبرز إحدى زلات الأفغاني الكبرى، ربما فعل الرجل ذلك بدافع ما حوته نفسه من حنق وغضب على واقع إسلامي سيئ، وربما دفعه إلى ذلك الحمية لنفسه؛ حيث شعر أنه خرج مهانًا، لكن أيًّا كانت نيته فرجل في حصافته ما كان له أن يجلس ليحكي بهذه الطريقة عن دولة مسلمة أمام حاكم أجنبي اتخذ الاستبداد منهجًا، وسنفصل في الوقوف على هذه الهنة الجمالية في فصل آخر،

لنكمل أن جمال الدين ترك نفسه على سجيتها، ولم يع مقاصد القيصر فأخذ يتحدث في غضب كيف يستبد الشاه بأمر رعيته، وكيف ينفق بإسراف وسفه، ثم كيف لا يريد إدخال الحكم الدستوري في بلاده، وصدمه القيصر ذات مرة فقال له: إنني أرى الحق مع الشاه إذ كيف يرضى أي ملك من الملوك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته؟

فقال له الأفغاني: أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير لعرش الملك أن يكون ملايين الرعية أصدقاء له، بدلا من أن يكونوا أعداء يترقبون الفرص، ويكمنون في الصدور سموم الحقد ونيران الكراهية.

وإن كان حكام الدول الإسلامية قد تحملوا آراء الأفغاني لما كان يتمتع به الرجل من نفوذ، أو لما كانوا يتمتعون به من بعض حياء، فما كان هناك شيء يمنع هذا الجلف الروسي من إبعاد الأفغاني، فالأمر يسير جدًّا؛ فما كان منه إلا أن أعطى الأمر أن ينحوا هذا الرجل عن البلاط بعد أن كان قد قضى أربع سنوات في البلاط الروسي لم يجن فيها شيئًا نافعًا لدعوته ولا منهجه، اللهم إلا بعض الإصلاحات التي اقتنصها في بداية الرحلة لمسلمي روسيا المهضوم حقهم هناك.

في هذه الفترة حصد الأفغاني نتائج أخرى لا أظنها مكسبًا؛ فقد استطاع أن يبث الرعب في قلب الشاه الذي رأى الرجل لا ينفك يذكره بالسيئ في كل مجلس وخطبة كأنه يغري به غيره، فقدم مساعيه أن يعيده إلى بلاطه ثانية نادمًا على ما فعله معه، لكن الأفغاني لم يقبل ورغم أن روسيا ضاقت به فإنه لم يحتر كثيرًا، وقرر الرحيل إلى ميونخ بألمانيا فتبعه الشاه مصممًا أن يعيده إلى كنفه حتى يكون تحت عينه، ويقول عبد القادر المغربي في هذا الصدد ما سمعه من الأفغاني نفسه أنه قال: جئت بطرسبورج، فمكثت فيها أكثر من أربع سنوات، سافرت إلى ميونخ من بلاد الألمان، فجاءها الشاه أيضًا فامتنعت، فوسط بيننا بعض كبار الرجال الألمانيين وغيرهم، فاجتمعنا، وطلب مني الذهاب إلى بلاده، كي يجعلني رئيس وزارته،

فأبيت، وقلت له: إني متهيئ للسفر إلى باريس ومشاهدة معرضـــها لـــسنة ١٨٨٩، ولكن الشاه أخذ يلح علي إلحاحًا شديدًا، فلم أجد مناصًا من إجابة طلبـــه والـــذهاب معه، قال السيد جمال الدين: ومن جملة قول الشاه في: إن هذا رجل العالم السياسي الحربي اللائق أن يكون رئيس وزارته.

الرحلة التاسعة

في إيران للمرة الثانية ..الجُرح يتجدد[1]

المنطق يقول إن هذا الرجل لو كان له أي مأرب سياسي أو دنيوي، فقد ضيع على نفسه فرصًا كثيرة للعلو والوصول إلى أعلى الرتب والمناصب، وقد حدث أن استُوزر من قبل فلم يلبث طويلاً، كل ذلك لأن له لسانًا كان يغلبه في مواطن إظهار الحق؛ حيث ينطلق بثوابت آمن بها صاحبه وعاش من أجلها. ولو أن هذا الرجل يمتلك هذه السمة فقط والله لكفته شافعة له، إن لم تكن عند ربه العالم بالسرائر ونيات القلوب، فبين المنصفين من بني البشر الذين لا يوقعون أحكامهم إلا على مُشاهَد محسوس دون المغامرة بالخوض في سرائر أناس ربما يكون لهم عند الله مقام وكرامة.

وها هو الأفغاني يمضي به قطار العمر ولا يحقق من مآربه إلا القليل، وتعرض عليه فرصة ذهبية كان يستطيع أن يستلقفها ويصير أهم رجل في البلاط الإيراني ويتخلى قليلاً عن مبادئه، أو يجمّل لنفسه القعود عن العمل المباشر ويربي ويعلم جيلاً يحمل فكره من بعده، إلا أن الرجل كان يرى هذه الطريقة خارمة للمروءة وهروبًا وتقاعسًا عن الإصلاح المنشود، فمجرد أن وضع قدمه في إيران للمرة الثانية رأى الترحيب الجم والفرحة الغامرة في عيون الناس الذين رأوا فيه الصدق وحب نفعهم، فعلا صيته وقويت شوكته بانتشاره بين الناس أكثر مما كان، وذلك لعظيم رغبتهم في أن يصلح من شأن بلادهم، فطلب إليه رجال التشريع - الذين رأوا تسامحًا من الشاه مع الأفغاني وأفكاره - أن يضع لهم أسسًا دستورية للحكم، وأن يسن لهم قوانين ترد المظالم عن الناس، وتجبر الحاكمين على احترامها، لكي تتحقق العدالة في هذا البلد ويلحقوا بركب أمم كانت أذل منهم والآن ركبت رؤوسهم، كذلك رغبوا إليه أن ينظم الأداة الحكومية ويطهرها من مفاسدها، وأن

---

(١) راجع: محمود قاسم ص ٧١- ٧٤.

يخفف من وطأة التقاليد الحكومية الجائرة، وأن يشرع في إرساء قواعد الحكم النيابي الذي يحد من سلطان الشاه، حتى لا يسوق الوطن إلى الخراب بسبب إتلافه وتبذيره، وبدا الحماس على أشده فيما يتصل بالإصلاح الدستوري، وقد يكون هذا خطأ آخر يسقط فيه الأفغاني لكن كما قلنا ليس هنا موضع محاكمته، كل ما هنالك أن الرجل مغامر لم يعرف المهادنة وكان قد أكرى حياته لمعاني إصلاحية يريد أن يطبقها اتفقنا معه في طريقته أو اختلفنا، ليس أمامنا إلا أن ننحني احترامًا لإخلاصه لمبادئه.

وكما كان متوقعًا بطبيعة الحال لم تستمر نفس الشاه راضية، وكما حاول أن يبدي أمام شعبه – الذي كاد أن يفلت زمامه من يده بعد أن ترك الأفغاني يخترق قلوبهم جيئة وذهابًا كما يحب – أحب أن يبدي رغبته في الإصلاح المنشود، وفي سعيه للحكم النيابي، فلم يجد بدًا من التظاهر بقبول آراء هذا الوزير الخطير، فأمل الناس الخير وظنوا أن الانفراجة اقتربت.

لكن ما كان في صدر الشاه من لغم قد ينفجر بعد حين، كان يحتم على الأفغاني أن ينتبه ويكون أكثر دبلوماسية؛ حتى يصل إلى مبتغاه لكن ما حدث أن ظهر أنصاف الرجال الذين تفرغوا للنفخ في الرماد، وإزكاء كل نار، إنهم كذابو البلاط، وطفيليو السلطة، قالوا للشاه: إن ما جاء به الرجل بدعة سياسية يريد به فسادًا في الأرض وما نريك إلا ما نرى، ومضوا في خطتهم وقد سلم لهم الشاه أذنه طواعية، فهو أولاً وأخيرًا شاه!

لم يستغرق أمر الدس وقتًا طويلاً حتى تحول الفرح إلى مأتم، وانقلب الأمر رأسًا على عقب، ونجح دعاة الرجعية وعشاق التخلف وسكان المستنقعات السياسية والثقافية، في مساعيهم الذميمة، بقيادة الصدر الأعظم ميرزا أصغر خان أكثر هؤلاء حقدًا على الأفغاني الذي أبدى تخوفه على عرش الشاه إن هو خطا خطوة في الحياة النيابية، فشكر له الشاه نصحه ونصح إخوانه، وبدأ على الفور في العمل بالنصيحة.

فأبدى ناصر الدين توجسات وحذرًا وترددًا، وتأجيلاً، ثم تـبجح أكثـر فـأظهر كراهيته لكثرة الحديث في الإصلاح وفي الحياة النيابية، لأن ذلك قد يفسد الشعب.

وقد نقل المخزومي في خاطراته عن جمال الدين حديثًا كان سببًا فـي غـضب الشاه؛ حيث قال الشاه للأفغاني: أيصح أن أكون يا حضرة السيد، وأنا ملك ملـوك الفرس شاهنشاه، كأحد أفراد الفلاحين؟ فقال جمال الدين: اعلم يا حضرة الـشاه إن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستوري أعظم وأنفذ وأثبت مما هي الآن، والفلاح والعامل والصانع في المملكة – يا حـضرة – أنفـع مـن عظمتك ومن أمرائك. واسمح لإخلاصي أن أؤديه صريحًا قبل فوات وقته، لا شك يا عظمة السلطان أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكـون على رأسها ملك ولكن هل رأيت ملكًا عاش دون أمة ورعية؟

لم يسترح الأفغاني للهجة الشاه التي تغيرت فقد أدرك أن الشاه سلم عقله لحاشية السوء، وما عاد مقتنعًا بالدستور ولا بالحياة النيابية، ولا بالإصلاح، ومن ثم فقـد أدرك الأفغاني أن مرحلة النضال الشقي قد بدأت من جديد، وهنا لم يشأ أن يتـرك إيران فور ما أحس من توجسات فقد كان بذر بذرة فنمت وأينعت، فكره ألا ينتظر حصادها، فغادر العاصمة إلى مشهد عبد العظيم شاه، على مسافة اثني عشر مـيلاً من طهران، وهو مكان يعظمه الإيرانيون يكون فيه بمأمن من تقلبات الشاه الذي لم يعد مأمون الجوار، وكان هذا المقام ملجأ وحرمًا من دخله كـان آمنًـا، واجتهـد الأفغاني في إثارة الرأي العام عله يرغم الشاه على تنفيذ ما كان أوشك على تنفيذه لولا أنه استسهل الحنث، وخشي أن يجور هذا الإصلاح على امتيازاته السَّنية.

لقي تحرُّك الأفغاني ودعوته النشطة صدى وقوة في أوساط الشعب، الذي كان قد تأهب أو لنقل أوشك أن يتأهب للمطالبة الثورية بحقوقه والاستعداد لانتزاعها بقـوة إذا تطلب الأمر ذلك، خاصة وأن دعوته كانت تلقى قبولاً قويًّـا لـدى الـوزراء وأمراء الجيش.

وكان هؤلاء جميعًا يخاطرون بأنفسهم فيذهبون لزيارة جمال الدين ولمفاوضته في أمر القوانين التي يريدون تغييرها، وظل جمال الدين على هذا الوضع طيلة ثمانية أشهر فعظم فيها شأنه وازداد خطره، وبدأ كثير من الناس يرسلون رسائل دون إمضاء إلى الشاه يطالبونه بالإصلاح والحكم النيابي، أو النزول عن العرش، وهنا غلت المراجل في الجبهتين وكاد الأمر أن يكون واقعًا ويلزم الشاه بمطالب الشعب، ولو بلغ الأمر أن تقام ثورة كالعرابية أو المهدية.

وفي هذا الوقت كان كل شاغل الشاه ومن حوله كيف يوقفون الطوفان الجمالي في نفوس الناس، وكان جليًّا لمن خبر شعوبنا الشرقية أنهم أسود ضارية لو كان لهم قائد، وحملان مستأنسة إذا تركوا بغير سائس، فخطط الشاه وعصابته، أن يضربوا الرأس فيموت سائر الجسد، ورأى الشاه أن يسلك في ذلك مسلك توفيق باشا في الغدر بالأفغاني، فأرسل إليه خمسمائة جندي بسلاحهم، فهجموا على مقام عبد العظيم شاه.

وكان الأفغاني قد أصيب في هذا الوقت بمرض شديد أقعده فراشه فدخل عليه هؤلاء الجند وقبضوا عليه بعنف، وأخرجوه بسرعة من ملجئه، وقاده خمسون منهم بشكل مهين ومذر ومثير كأنه أحد الضلال ورموه في "خانقين" على الحدود العثمانية لا يقوى على الحركة من شدة ما ألم به من مرض وكان ذلك في أوائل سنة ١٨٩١.

وكان نفيه أو لنقل طرده من إيران بهذه الطريقة شيئًا مثيرًا للحنق والغضب، ولقد قص الأفغاني هذا الحادث بنفسه بشكل يوحي بفداحة ما تركته هذه الفعلة في صدره، فيقول: وأما قصتي وما فعله هذا النكود الظلوم معي فمما يفتت أكباد أهل الإيمان، ويقطع قلوب ذوي الإيقان، ويقضي بالدهشة على أهل الكفر وعباد الأوثان، إن ذلك اللئيم أمر بسحبي، وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام، في شدة المرض، على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن

يتصور دونها في الشناعة - هذا كله بعد النهب والغارة - ثم حملني زبانيته الأوغاد، وأنا مريض، على برذون مسلسلاً في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرة، وساقتني جحفلة من الفرسان إلى خانقين.

كان ذلك كفيلاً بأن يجعل الأفغاني أكثر تهورًا في الفترة القادمة لا سيما على الشاه الذي أقسم الأفغاني على الانتقام منه، فخصص له جزءًا كبيرًا من وقته أثر على شخصية الأفغاني وأضر بمنهجه؛ فلم يعد يملك زمام نفسه بعد ما لاقى من إهانات، وكان من الممكن أن يعذر لو كان رجلاً عاديًّا، ولكن الأمر كان زلة أخرى لا تغتفر.

ونترك النقد لصفحات أخرى وننتقل مع الأفغاني في رحلته الجديدة نحو البصرة التي نستطيع أن نقول: إنه تفرغ فيها للشاه الإيراني، وأجل - قليلاً - قضية عمره.

الرحلة العاشرة

إقامته بالبصرة

الجولة الأولى في معركته مع الشاه[1]

نستطيع أن نقول إننا في هذه الرحلة نتعامل مع جمال الدين الذي لم نعهده على مدار رحلاته الكثر؛ الشخص العادي، الذي يمل وييأس ويحمَى لنفسه، فقد تفرغ الأفغاني لثأر شخصي، لا نقول إنه لم يكن من حقه ذلك بل ليس من حقنا، ولكن من حقنا أن تحيطنا الحسرة ونقول: خسارة .. لو لم يفعل!

كنا نريد صفحة بيضاء لا يشوبها قتام، بالطبع الإنسان مجبول على الزلل والخطأ والنسيان والغضب، لكن هناك رجال ليسوا ككل الرجال فإن اتقوا فلهم أجران بل أجور، وإن نكصوا على أعقابهم فالحساب يقدر بالعلم والجهالة.

هبط الأفغاني البصرة وكل همه كيف يردي ذلك المتغطرس المتكبر المتعجرف ناصر الدين شاه، وينتقم لكرامته التي ديست.

والحسرة تشتد إذا سألت: ماذا تجدد يا أفغاني، قضيت ما مضى من عمرك تُنسج لك الحيل، وتُحيط بك الأحقاد، وتقريبًا لم تخرج من أي بلدة وطئتها إلا مطرودًا أو شبه مطرود، ولكنه الزلل وسنة النقصان.

قضى الأفغاني سبعة أشهر في البصرة ألهب فيها معركته مع ناصر الدين شاه، مستخدمًا كل أسلحته وقوته الاتصالية التي كانت متكئه في عراكه الإصلاحي مع قوى الفساد التي كان يواجهها، يتفرغ هذه الشهور لنفسه قليلا كي يرد صفعات الشاه التي بلغت من نفس الأفغاني الأبية مبلغًا، فأقسم ألا يتركه حتى يغيبه لحده، فأخذ يحرض عليه رموز المجتمع من رجال الدين، الذين حرضوا عليه من قبل

---

(١) راجع هذه الرحلة في: جمال الدين الأفغاني لعبد القادر المغربي ص ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، والأفغاني موقظ الشرق ص ٧٧، ٧٨.

كثيرًا، فكتب إلى ميرزا محمد حسن الشيرازي كبير مجتهدي الشيعة في "سامرا" رسالة كتب في بدايتها ديباجة ببلاغته المعهودة، وبالإطراء أحيانًا تنال ما لا تناله بالصراحة، ثم ذكر له أنه دعامة عرش الدين، وأن الله أجلسه على ثغر من ثغور المسلمين سيسأل عنه يوم القيامة، ثم أوضح له أنه يكتب إليه ليؤدي الأمانة التي في عنقه بأن يطلعه على سوء حال إيران وشاهها، وحال الأجانب فيها الذين صيروها مرتعًا لهم، ودوره هو ككبير كبراء شيوخ الشيعة، تجاه مثل هذا المفسد ناصر الدين شاه، الذي يسب الأنبياء، ولا يطبق الشريعة، ولا يحترم رجال الدين، وهو بعد ذلك موال للأوربيين يبيع الجزء الأعظم من إيران ومرافقها للإنجليز.

وكان الشاه الإيراني قد سقط في زلة تلقفها الأفغاني وساعدته كثيرًا في حربه معه؛ حيث كان قد عقد للإنجليز امتيازات لاحتكار المعادن والطرق والخانات والبساتين والحقول والتبغ والعنب، وأعطاهم حق حفر المصارف، وقال عنه الأفغاني: إنه يخادع الناس إذا شكوا سوء فعله بأن يقول لهم: إن ما فعله ليس سوى معاهدات تجارية محدودة لزمن معين، وإنها ترمي إلى النهوض بالبلاد.

ثم يضيف الأفغاني: ولما رأى الروس كيف يتدخل خصومهم (الإنجليز) في الشؤون الاقتصادية لإيران غضبوا لأنفسهم، وطالبوا بنصيبهم في الغنيمة، فأراد هذا الزنديق أن يدفع شرهم فعرض عليهم مزايا اقتصادية أخرى، فرفضوا ما قدمه لهم، وأعلنوا عن رغبتهم في امتلاك خراسان وأذربيجان إذا لم تنقض إيران معاهداتها التجارية مع إنجلترا.

ثم يشعل الأفغاني الشيخ ميرزا قائلاً: وإذا لم يقم إمام المجتهدين بعمل حاسم فستضيع إيران، وتصبح حوزة الإسلام تحت سيطرة الأجانب، ولو واتته هذه الفرصة للوقوف في طريق تلك الكارثة كان خليقًا أن يترك بعده ذكرًا حميدًا.

وأراد الأفغاني أن يستخدم جميع أسلحته كي يحسن الانقضاض؛ فأراد أن يقول لرموز تركيا: إنه لا بد لكم من التدخل، ولكن بسياق طمئنة للشيرازي، فقال له: إن

تلك الكلمة الحاسمة التي سيقولها هي تلك التي يترقبها منه علماء إيران وأهلها، وإنه سيلقى تشجيعًا من تركيا! التي لن تضن عليه بعونها.

ثم ختم رسالته بإطراء أرق من الديباجة الأولى، يجد بعده الرجل نفسه مدفوعًا رغم أنفه لاتخاذ قرار يعزز تلك الثقة الغالية التي مررها إليه الأفغاني على أنها حقيقة وواقع فقال عنه: إنه الرجل الذي يستطيع إنقاذ كل شيء؛ فقد عجز علماء الدين في إيران عن جمع الكلمة فيما بينهم هم أنفسهم، أما هو فإنه أمة وحده.

لله درك يا أفغاني! إن هذه الكلمات ألهبت الرجل إلهابًا؛ فقام من فوره مثار الحمية وأمسك قلمه، وأصدر فتوى جريئة جديدة حرمت تدخين التبغ الذي كانت إنجلترا قد احتكرته منذ سنة ١٨٩٠، وأرسل هذه الفتوى إلى العلماء والوعاظ، فأذاعوها، وأمروا الناس بتنفيذها، وبالفعل نجحت الخطة الأفغانية وانصرف الناس عن التدخين، ووجد ناصر الدين نفسه في ورطة بعد ما عقده مع إنجلترا، فاضطر إلى أن يفسخ عقد الشركة الإنجليزية بعد أن عوضها بنصف مليون جنيه، قصمت ظهره.

وجنى الأفغاني من ذلك الحسنيين؛ فمن ناحية عرقل تقدم خطى الإنجليز العنكبوتية داخل الأرض الإيرانية، ومن ناحية أخرى استطاع أن يشفي قليلاً من غليله من ذلك الشاه الإيراني في جولة ستتبعها جولات وسيخسرها كلها.

مرض الأفغاني ومغادرته البصرة

أصيب الأفغاني بمرض شديد أثناء إقامته بالبصرة كاد يودي به، ولم أقف في الكتب على كنه هذا المرض، لكن ما لبث الرجل أن عوفي، ثم حبب إليه أن يغادر البصرة وكأنه استثقل جوها، وأراد أن يتوجه نحو الجزيرة العربية، وطلب من والي البصرة (هدايت) – وكان رجلا تقيًّا متقدمًا في السن، أكرم الأفغاني كثيرًا أثناء إقامته في البصرة وعند رحيله – أن يأذن له في الخروج، فتردد الوالي؛ لأن خروج مثل الأفغاني ليس بالأمر الهين، فهو يحتاج لحسابات ومشاورات ومداولات؛

لذا استمهله الوالي بعض الوقت حتى يشير على السلطان عبد الحميد: هل يأذن لجمال الدين بالسفر أم يحتجزه عنده؟

وجاء الأمر من الآستانة على ما كان غير متوقع للأفغاني؛ حيث رفض السلطان سفره، وعندما علم الأفغاني أن الرفض جاء من تركيا، انتظر قليلاً ثم عاد يطلب من الوالي السفر إلى إنجلترا، فاستمهله الوالي ثانية وكانت هناك حسابات أخرى، في الموضع المسافَر إليه؛ حيث جاء – أخيرًا – الإذن بالسفر، فما كان من الأفغاني إلا أن أسرع ولملم متاعه، وارتحل؛ خشية أن يرجع السلطان عن إذنه، وكان الأفغاني محقًّا في إسراعه، إذ ما لبث أن جاء أمر آخر يحظر عليه مغادرة البصرة، لكنه كان قد رحل.

قصة رحيله وتعاطف الوالي معه

يقال إن الأفغاني لما أراد مغادرة البصرة لم يكن يملك سوى عشرة جنيهات، فتشاور أعيان المدينة فيما بينهم ألا يتركوه يرحل بهذا المال القليل، وجمعوا له شيئًا من العون بلغ خمسمائة جنيه، وتبرع الوالي بخمسين منها، وقدم المال للأفغاني فقبله منه، لأنه كان يحترمه ويبجله، ثم قال له: إني أرجو أن أرد إليك هذا الصنيع يومًا ما. ثم أتاحت له الأيام أن يحسن إلى عائلة الوالي؛ فقد زاره عبد الحميد الرافعي قاضي البصرة أيام كان الأفغاني في الآستانة للمرة الثانية، فسأله أول ما سأله عن هدايت باشا فأخبره بوفاته، فطلب إليه أن يستفسر عن حال أهله، فوجدهم في ضيق شديد، فسجل حفيدة هدايت باشا في سجل أبناء الأشراف والبيوت القديمة، وخصص لها ثلاثين جنيهًا شهريًا، كما استطاع أن يخصص لأرملة الوالي وابنته خمسين جنيهًا في الشهر[1].

---

(١) محمود قاسم ص ٧٧.

الرحلة الحادية عشرة

في إنجلترا .. الجولة الثانية مع شاه إيران(١)

كفى بالشاه إثمًا أنه استطاع أن يفعل مع الأفغاني ما لم تفعل معه الدنيا بزينتها على مدى رحلته الطويلة؛ فقد استطاع أن يلفت الداعية المصلح عن دعوته وإصلاحه، وينتبه لثأر باهت، يظهر من واقع ما نقل عنه إلينا أنه لم يكن بالقوة التي تستطيع أن تقهر نفسية رجل طالما قهر نفوسًا ضعيفة ومن قبلهم الشاه نفسه.

مضى الأفغاني في صولاته التي اختلط فيها العمل لله مع العمل لنفسه المكلومة، لم يثنه أحد عما عزم عليه، فما إن وضع قدمه في أرض الإنجليز حتى شهر سلاحه في وجه الشاه وبينهما مئات الكيلوات، ومضى يخطب ويكتب عن إيران وسقوطه، والشاه وظلمه، وتناول كل ما استطاع تناوله لا سيما وأنه كان أحد وزراء البلد ويعرف كثيرًا من خبايا ذوي النفوذ فيه، ثم اشترك الأفغاني في تأسيس جريدة اسمها "ضياء الخافقين" وكانت تصدر باللغتين العربية والإنجليزية.

وكانت تقول في ظاهر مبادئها: إنها تعمل على تحقيق الاتفاق والتعارف بين أهل الشرق والغرب، وظهر العدد الأول منها في فبراير سنة ١٨٩٢، وكان أول مقال كتبه الأفغاني استعرض فيه فضائح عن سوء الحالة الاقتصادية في إيران، ووصفها بأن الخراب يبسط ظله عليها، وفضح المتسبب في ذلك، وأخذ يعدد ظلم الشاه، وتعذيب الرعايا، وعسف الولاة، وهجرة الشعب نحو تركيا أو روسيا، والرشوة، والجيش الذي ليس له راتب محدد بل كانوا يعيثون في الشعب فسادًا وينهبونهم كل حسب قدرته في النهب.

---

(١) راجع: جمال الدين الأفغاني لعبد القادر المغربي ص ٩٠ – ٩١، الأفغاني موقظ الشرق ص ٧٨ – ٧٩.

حصاد الهجوم على الشاه

- كسب مباراته مع الشاه: لعل الشاه ندم أشد الندم على ما فعل مع رجل في قامة جمال الدين الأفغاني؛ فقد استطاع جمال الدين أن ينتقم من الرجل شر انتقام فأربكه وحقره أمام عدوه وأمام شعبه، حتى اضطر الشاه أن يرسل له سفير إيران كي يعرض عليه أي مبلغ من المال مقابل أن يصمت عن الشاه، لكن الأفغاني استشاط أكثر واعتبرها سبة، وأخذ يكيل له ما استطاع فلم يشف غله بعد، ثم لم يجد الشاه بدًّا من الاستنجاد بالسلطان عبد الحميد الثاني الذي كان متابعًا لما يجري، ويعرف تمامًا حجم الأفغاني وقامته، فأرسل إليه سفيره في لندن وهو رستم باشا ليطلب منه باسم السلطان أن يصمت عن الشاه، فأبى الأفغاني واستمر في انتقامه، ففكر السلطان عبد الحميد في حل سيفيده قبل أن يفيد الشاه، وهو أن يضم جمال الدين إلى بلاطه فإما أن يضمن ولاءه! أو أن يسكته كما شاء، واختار أن يقوم بعرض هذه الفكرة على الأفغاني أكبر رجال الدين عنده وهو أبو الهدى الصيادي، يقول عنه الدكتور قاسم إنه رجل: قد برع في استخدام الجواسيس والتدخل في الشؤون السياسية والعسكرية، وكان عدوًّا لكل إصلاح. فذهب أبو الهدى للأفغاني واستطاع أن يقنعه بالسفر إلى تركيا ولم يستطع أن يثنيه عن التعرض للشاه.
- الإساءة لإيران: أساء جمال الدين الأفغاني لإيران أيما إساءة عندما اختار ذلك الأسلوب في التعرض لواليها، وشعبها التابع له.
- أساء الأفغاني لنفسه: عندما قرر الأفغاني أن يهاجم شخصًا في دولة خارج حدود الدولة، بل عند من يعتبرهم هو أعداءها، فقد بدى لحظتها وكأنه تقمص دورًا لم يكن دوره إطلاقًا، فسمح للحاقدين عليه أن يطعنوا في وطنيته بكل يسر، ولا لوم عليهم، فهو الذي أعطاهم تلك الفرصة على طبق من فضة.

إذن كانت الرحلة ومباراتها خاسرة تمامًا، ولم يربح فيها جمال الـــدين ســـوى موافقته على السفر نحو محطته الأخيرة؛ تركيا.

وقبل أن نرحل إلى تركيا نذكر هنا لفتة للدكتور قاسم حول علاقـــة الـــسلطان بجمال الدين، فيقول: على أن السلطان لم يدخله إلى تركيا إشفاقًا على الشاه وحده، بل خوفًا من خطره الذي قد يطاله، وكان يخشى أن ينضم لحزب تركيا الفتاة، الذي يناوئه خصوصًا بعد علمه باجتماعه ببعض رجال الحزب في باريس.

وإلى تركيا...

الرحلة الأخيرة

في تركيا ..

كانت النهاية الغامضة [1]

سافر الأفغاني إلى تركيا تحدوه آمال وأحلام عريضة، فالرجل قد أدركه الشيب، وبلغ به الجهد كل مبلغ، ولم يزل يشاغب مع الدنيا كي يحقق مآربه التي عاش من أجلها.

استقبال سلطاني وترحيب شعبي

لما بلغ جمال الدين الآستانة أحسن السلطان وحاشيته استقباله، ويحكى أنه عندما نزل إلى الميناء سأله عن صناديقه، فقال: ليس معي إلا صناديق الثياب وصناديق الكتب، فلما طلب الياور أن يدله عليها أشار الأفغاني إلى صدره، وقال: صناديق الكتب هنا، وأومأ إلى جبته وقال: وهذه صناديق الثياب.

ومن ناحيته لتأكيد الحفاوة به أجرى السلطان عبد الحميد عليه راتبًا كبيرًا هو خمسة وسبعون جنيهًا، ثم هيأ له منزلاً فخمًا به حشم وخدم، أنزله فيه، وجعل له عربة خاصة بسائقها.

وهيئت لجمال الدين حياة لم يعشها من قبل ولو أراد من سنوات كثيرة لاستطاع أن يعيشها.

أطواق من ذهب

الذين ترجموا لجمال الدين الأفغاني لم يروا أن هذا الاحتفاء مجرد ود صافٍ من قبل السلطان عبد الحميد، بل يرون أنه كان احتفاء أشبه باحتفاء الإنجليز به في

(١) راجع: رواد الوعي الإنساني ص ٢٢، ومحمود قاسم ٨٣ – ٨٤.

رحلته الأولى إلى الهند؛ حيث كان السلطان قد أوكل له من ضمن حاشيته وخدمه الذين يخدمونه رجالاً وظيفتهم التجسس عليه ونقل أخباره أولاً بأول.

ثم عرض السلطان عبد الحميد على الأفغاني أن يزوجه بإحدى سليلات العائلات التركية الراقية، فرفض جمال الدين بأدب، وآثر السلامة فيما تبقى من حياته وفضل أن يبقى دون زوجة قد تكون عبئًا عليه، أو يكون هو عليها عبئًا، فمن تتحمل رجلاً لا يستقر بموطن ولا يقر له بدن.

إصلاحه في تركيا

كان أول أعمال الأفغاني الإصلاحية في تركيا أنه سعى لوضع مناهج جديدة لطلبة المدارس؛ كوسيلة جديدة للتعامل مع نبت لا زالت صفحته بيضاء، يستطيع فيما بعد أن ينهض بأعباء دولة الإسلام.

وهنا نلحظ أن جمال الدين كان قد تغير بعض الشيء؛ فقد هدأت حدته، واتخذ منهجه منحنًى جديدًا متقاطعًا مع وجهة نظر تلميذه الإمام محمد عبده، الذي نصحه قبل ذلك أن يفرغ نفسه لتربية جيل جديد يكون نواة لحركة تجديدية كبرى.

وكان الأفغاني في فترته الأولى من إقامته في تركيا مقربًا إلى السلطان عبد الحميد، المعجب بأسلوب الأفغاني ونجاحه الدعوي وصدق نياته في إصلاح الفساد؛ فكان جمال الدين يدخل على السلطان متى شاء وكيف شاء دون انتظار إذن أو أمر، وكان يصلي معه الجمعة.

الأفغاني وحديث صريح عن الشورى

لم يطق الأفغاني صبرًا، ولم يتحمل أن يظل مهادنًا يتنقل في أرجاء البلاد وهو يرى أن أوضاعها خاطئة وفاسدة، وأكثر ما كان يثير حساسيته للتحرك، ما كان يراه من ديكتاتورية وفرض سلطة من الحاكم.

فأخذ الأفغاني يتحدث عن الشورى والحرية، وحتمية إعطاء الشعب حقه في الاعتراض وفي إمضاء ما يراه في مصلحة وطنه. فتحمس السلطان عبد الحميد

لكلام الأفغاني وأحب أن يكون في الصورة الجميلة التي رسمها الأفغاني، ويقول البعض: إنه تظاهر بذلك وهو يبيت نية ما للأفغاني فكان حذرًا منه ومن جرأته.

وفي هذا الصدد، وعلى سبيل الاستدراج، عرض السلطان عبد الحميد على جمال الدين، منصب شيخ الإسلام، فأبى الأفغاني واشترط على الموافقة أن يُتم السلطان عملية الإصلاح السياسي والاجتماعي أولاً.

خصم جديد وحقد قديم

لعل هذا الصعود الأفغاني كان سببًا رئيسًا في أن يوغر صدر الشيخ أبي الهدى الصيادي عليه بعد أن كان على وفاق معه.

فيقول البعض: إن الشيخ أبو الهدى سلك دربًا سيئًا، ودبر للمكر بالوافد الصاعد، فأخذ ينشر بين الناس أن جمال الدين زنديق كافر، وكان الشيخ الصيادي قد أخذ عليه أنه استحسن ما صنعه أحد المستشرقين عندما صنف القرآن الكريم حسب موضوعاته، فقال: إن هذا العمل كفر والرضا به كفر أيضًا.

وتدريجيًّا، حمي الأفغاني واندفع يدافع عن شخصه، بكل ما أوتي من قوة خطابية وسهولة انتشار، وكثرة جمهور؛ فذهب يعرض بالصيادي ويسخر منه ويتهكم به.

وكان من المواقف التي أبرزت رؤية الأفغاني للصيادي، أن السلطان أنعم على الأفغاني برتبة من الرتب، فحملت ملابسها الرسمية وهي ملابس فضفاضة ملونة، وزينة للصدر، والرأس مذهبة، ثم طلب منه أن يأتي إلى حيث يقوم بارتداء هذه الخلعة.

فكان موقف الأفغاني الرفض بحزم، ثم علق قائلاً للرسول: قل لمولاي السلطان إن جمال الدين يرى رتبة العلم أعلى الرتب، ويقول بعضهم إنه أضاف: إنه لا يريد أن يكون كالبغل المزركش. كأنه بذلك يقصد أبا الهدى الصيادي.

ومن جهة أخرى كانت حرب الأفغاني، الذي كان قد تعود لسانه في هذه الفترة على الهجاء والنقد والتركيز على مهاجمة الأشخاص، وكان لذلك تأثير كبير في

دعوته؛ حيث إنه كان مستمرا في محاربة ناصر الدين شاه، الذي كان يقاسي عذابًا أليمًا من جراء هجمات الأفغاني وتهييجه للرأي العام الإسلامي والغربي ضده.

وقد يكون ما زاد من قلق السلطان عبد الحميد من ناحية الأفغاني، الجرأة والثقة والقوة التي كان يهاجم بها ناصر الدين شاه، لدرجة أنه تنوقلت أخبار أن جمال الدين كان يخطط لقتل الشاه.

وذات يوم وكل الشاه سفير إيران أن يطلب من السلطان أن يتدخل لإسكات الأفغاني عنه، وكانت العلاقة بين الشاه والسلطان طيبة إلى حد ما، فطلب السلطان رؤية الشيخ الأفغاني، وقال له: إن سفير العجم ترجاني في أن أتكلم إليك في الكف عن الوقيعة في الشاه، وأنا بناء على أملي فيك، وعدته أن تكف عنه.

ويقول الأمير شكيب أرسلان: إن السيد روى له هذه القصة عندما رآه في الآستانة في أواخر سنة ١٨٩٢، وإنه قال له بالحرف الواحد: قلت للسلطان: ما كنت ناويًا أن أترك شاه العجم حتى أنزله في قبره، لكن بعد أن أمر أمير المؤمنين بالكف عنه فلا بد من طاعته.

لعل الجملة التي قالها الأفغاني في حضرة السلطان أفزعته أكثر مما طمأنته، فقد أُخذ السلطان؛ فأخذ يضيق عليه الرقابة، وكلف جواسيسه بمتابعته[١].

لكن لم يستطع جمال الدين أن يفي بما وعد؛ فلم يكف عن الطعن في الشاه والتحريض عليه، ومما يحكى في ذلك أنه لقي في الآستانة أحد رفاق سجنه في إيران، وهو محمد رضا أغاخان، ويبدو أنه هو الآخر كان يكن للشاه ما يكنه الأفغاني ومتحمسًا لفعل أي شيءٍ يضره، فجعلا يتحدثان عن بؤس إيران.

وأثناء الحديث والشكوى اقترح محمد رضا أغاخان أن يقوم بعملية فدائية تخلص إيران، ويقال: إن الأفغاني وافقه على ما نوى.

---

(١) لحظ الأفغاني يومًا أحد هؤلاء، وهو يلهث بينما كان يعدو على قدميه وراء العربة التي يركبها، فطلب إلى حاشية السلطان أن يشفقوا على هذا الجاسوس، وأن يأمروا له بعربة كي يتابعه دون مشقة.

ويعلق الدكتور محمود قاسم على ذلك بقوله: ليس ذلك بعيد الاحتمال للصدق، فقد كان يؤمن بالاغتيال السياسي، ومن قبل كاد يدفع محمد عبده لاغتيال إسماعيل.

وضعت الخطة ولم يضع محمد رضا وقتًا وتوجه مباشرة نحو إيران، ودبر لاغتيال الشاه، وأحكم خطته، وبالفعل استطاع التخلص منه عندما كان في مشهد عبد العظيم شاه في ١١مارس ١٨٩٦، حيث قال له وهو يطعنه: خذها من يد جمال الدين.

ولما جاء الخبر إلى الآستانة تلقاه جمال الدين شامتًا في غريمه الذي طالما آلمه وأهانه، فزاد ذلك من توجس السلطان وأمر بزيادة الرقابة عليه حتى أصبح سجينًا في قصره.

الأفغاني يحاول نزع الطوق

ضاق الأفغاني ذرعًا بحياة كلها رقابة وتوجس وقلق، فقرر أن يستعين بالسفارة الإنجليزية في تركيا، كي يتخلص من هذا القيد الثقيل الذي ألقى بنفسه فيه عن طيب خاطر، وبالفعل أرسل إلى مستشار السفارة، وطلب منه أن يساعده في الخروج من الآستانة.

اكتشف الجواسيس مراقبو الأفغاني ما ينتويه؛ فصعدوا الأمر سريعًا إلى السلطان عبد الحميد، الذي أقلقه الخبر غاية القلق، فقد رأى أنه بذلك يستقوي بالإنجليز وإن أفلت من قبضته وهو ناقم هكذا فسيكرر ما فعله مع الشاه.

وعلى الفور أرسل إليه السلطان يطلب منه أن يتخلى عن عزمه، موضحًا له أنه من السيئ أن يلجأ إلى حماية دولة أجنبية، وهو بين أسوار دولة الخلافة الإسلامية.

وأحس الأفغاني خطأ ما قام به، ووافق على المكوث على حاله في تركيا، بعد أن أخذ من السلطان عبد الحميد وعودًا وعهودًا، على إرضائه وتحقيق مساعيه التي سبق أن اتفقا عليها، وبدأت أحوال السلطان عبد الحميد وعلاقته بالأفغاني تتغير شيئًا فشيئًا.

الرحلة إلى الآخرة

وبعد أشهر قليلة كان قد آن للصفحة الأخيرة في حياة الأفغاني أن تجف وتطوى حتى ساعة الاطلاع الكبرى، فقد ظهرت عليه أعراض السرطان في فمه الذي حوى لسانًا طالما نافح وصاح ودافع عن الأمة ومستقبلها، فاستراح قليلاً حتى يستطيع أن ينافح عنه أمام ربه فلعله يكون سببًا في نعيمه الأخروي كما كان سببًا في شقائه الدنيوي.

أجريت للأفغاني عملية جراحية أخفقت – ويقال إنها أُخفقت – وغادر الأفغاني في سفره الأخير الأرض وآلامها وقلة مطاياها إلى السعة والنعيم كله، في صبيحة الثلاثاء ٩ مارس ١٨٩٧ في ٥ شوال سنة ١٣١٤هـ[(١)].

وقد شيعت جنازته كما يليق به، ويقال العكس في جريدة المقطم[(٢)] حيث قالت: لما تحقق أتباع السلطان من موت جمال الدين صدرت الأوامر بضبط أوراقه وسائر تركته، ثم أمر بدفنه، فلم يحضر إلا عدد قليل من أصحابه، وحمله أربعة من حمالي الآستانة على أكتافهم وسار فرسان الشرطة لحراستهم، ودفن كما يدفن الرجل العادي في بلاد آل عثمان.

وهذا الكلام لم نجد له توثيقًا، وإن كان قد حدث، فقد قاسى الرجل – وهو على قيد الحياة – ما هو أقسى وأشد، فهل يبالي وهو جثة هامدة!

---

(١) وقد شاع في كثير من البلاد أنه مات مسمومًا، ويقول الشيخ رشيد رضا كأنه ينفي: إن هذه الشائعة تكررت بمناسبة موت عبده والكواكبي.

(٢) عدد ١٨ مارس ١٨٩٧م.

قبر الأفغاني

طمر النسيان قبره سنين طويلة لم يهتم به أحد، حتى كشف عنــه المستــشرق والخبير الأمريكي مستر شارلي كرين سنة ١٩٢٦، وبنى عليه مقبرة، وكتب عليها: أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمــسلمين فــي أنحــاء الأرض العــالم الخبيــر الأمريكاني المستر شارلي كرين سنة ١٩٢٦. ثم نُقل رفات جمال الدين إلى بــلاد الأفغان في عام ١٩٤٤م.

الفصل الرابع

جمال الدين المفكر

إطلالة على فكره ومنهجه الإصلاحي

اعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي، والفارسي بالهندي، والمصري بالمغربي، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية...

جمال الدين الأفغاني

الفصل الرابع

جمال الدين المفكر

(إطلالة على فكره ومنهجه الإصلاحي)

أولاً: مشروع الجامعة الإسلامية[1]

تعريف الجامعة الإسلامية:

هى عبارة عن دائرة انتماء عقائدي وحضاري وسياسي، نبعت وتتبع من التوحيد الإسلامي.

وفي العصر الحديث أصبح شعار "الجامعة الإسلامية" المظلة التى استظلت بها دعوات وحركات جمعتها مقاصد إنهاض المسلمين بالإسلام؛ للخروج من مأزق التراجع الحضاري، ولمواجهة المد الاستعماري الغربي.

جمع هذا الاتجاه بين الأصول الإسلامية وبين التجديد، وانطلق من مصر فى سبعينيات القرن التاسع عشر إلى كل أنحاء العالم الإسلامي، وتميزت دعوته بـــ:

١- الإصلاح الديني: من منطلق العقلانية الإسلامية التي توازن بين "الرأي" و" الأثر".

٢- المحافظة على الدولة العثمانية، باعتبارها الدولة الإسلامية الجامعة.

٣- تجديد الصلات الحضارية مع الغرب واقتباس المناسب من حضارتها وعلومها، من واقع التمايز الثقافي والاستقلال الحضاري.

---

(١) راجع في ذلك: جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق ص ٧٩ – ٨٠ – ٨٢ – ١٣٦ – ١٣٩، نقلاً عن الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني – طبعة القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٦٨ – ص ٣٠٧ - ٣١٠ – ٣٤٩. ود/ حسن حنفي ١٦٩ - ١٨٤.

٤- تحرير ثروات العالم الإسلامي من النهب الاستعماري والسيطرة الغربية.

وإذا كانت التحديات، واختلال موازين القوى، قد غالبت هذا "التيار الإنقاذي" فحالت بينه وبين النجاح في تجديد الدولة العثمانية، إلا أن دعوته إلى الجامعة الإسلامية هي المظلة التي عملت في ظلالها كل دعوات التجديد الإسلامي.

فالجامعة الإسلامية هى رابطة أمة، بأقوامها المتعددة ومللها المتمايزة، وهى ليست نزعة دينية متعصبة ضد غير المسلمين، سواء فى داخل الأوطان الإسلامية أو فى الغرب النصراني، وإنما هي رابطة إسلامية لشعوب المدنية الإسلامية، تحتضن "التنوع" فى إطار جوامع الإسلام[1].

جمال الدين الأفغاني مؤسس الجامعة الإسلامية

يقول جمال الدين الأفغاني في معرض حديثه عن مشروع عمره: لقد جمعت ما تفرق من الفكر، ولممت شعث التصور، ونظرت إلى الشرق وأهله، فاستوقفني الأفغان وهي أول أرض مس جسمي ترابها، ثم الهند وفيها تثقف عقلي، فإيران بحكم الجوار والروابط؛ فجزيرة العرب من حجاز هو مهبط الوحي، ومن يمن وتبابعتها، ونجْد والعراق وبغدادها وهارونها ومأمونها، والشام ودهاة الأمويين فيها والأندلس وحمراؤها، وهكذا كل صقع ودولة من دول الإسلام وما آل إليه أمرهم، فالشرق الشرق، فخصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه، فوجدت أفشل أدوائه داء انقسام أهله، وتشتت آرائهم، واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر الغربي المحدق بهم[2].

عاش الأفغاني ما عاش وجل أحلامه أن يرى الإسلام وأمته داخل حدود دولة واحدة وتحت نفوذ خليفة واحد؛ كي يوحد عليه النفوس، وتستطيع معه الأمة أن

(١) موقع وزارة الأوقاف المصرية http://www.islamic-council.com.

(٢) أقلام ثائرة – حسن الشيحة – دار القلم – ص ٤٣، ٤٤.

تلتفت لعدوها الخارجي بدلاً من أن يلتفت كل أخ لأخيه يحاربه أو يعاركه، بدافع من سوء الظن الأهوج.

وها هي الفرصة تسنح والعرض يأتي له على طبق من ذهب ومن الخليفة الرسمي شخصيًّا؛ حيث كان ذلك أثناء فترة إقامته الأخيرة في لندن متمنعًا على ناصر الدين شاه؛ حيث أرسل إليه السلطان عبد الحميد الثاني يستميله ويمنيه بفكرة "الجامعة الإسلامية" ولم شمل المسلمين تحت راية واحدة لدفع الاستعمار المتكتل الذي لا ترده إلا قوة متكتلة مثله.

طار الأفغاني سعادة بهذا العرض الطيب الذي اختصر له مشوار حياته، وانطلق نحو الآستانة ينسق مع السلطان عبد الحميد العمل للوصول إلى تلك الغاية.

وفي اجتماع بينهما قال السلطان عبد الحميد للأفغاني: إني ملتمس من حضرتك أن تبذل غاية الجهد حتى نستطيع - بتوحيد آرائنا ومساعدة حضرتكم - أن ننشئ ونؤسس اتحادًا واتفاقًا، قويًّا ثابت الأركان، لا يقبل الخلل من الشعوب الإسلامية، حتى يمكن بفضل تلك الوحدة أن تمد أمم الجامعة الإسلامية يد المودة والإخاء بعضها إلى بعض، وتنهض بالصناعة والعلوم في ظل الاستقلال القومي والاتحاد الإسلامي، ولكي يصل لها التوفيق بعون الله - تعالى - لاسترجاع تلك القوة العظيمة السابقة، ولا تتأخر عن ركب السعادة والترقي.

وكان الكلام على هذا النحو آخذًا بلب جمال الدين الأفغاني؛ فها هو الحلم الذي عاش حوالي أربعين عامًا يعالج خيوطه التي كانت تبدو أحيانًا أضغاثًا وأوهامًا لرجل لا يفقه واقع أمته، ها هو الحلم يؤول ويشخص أمامه بكل يسر ومن خليفة المسلمين نفسه.

فقد كان الأفغاني قبل ذلك ينظر لهذا المشروع دون أن يرى تحقيقه على وجه الواقع، فمثلاً كان من تنظيراته التي صارت قواعد لهذا المشروع العظيم:

١- قوله: علِمنا وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم.

٢- وقوله: واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي، والفارسي بالهندي، والمصري بالمغربي، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية.

٣- وقوله: هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين، لهذا ترى المغربي لا ينفر من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربي، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض، وأن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظًا لشأن الشريعة ذاهبًا مذاهبها.

٤- وقوله: وهذا هو السر في إعراض المسلمين – على اختلاف أقطارهم – عن اعتبار الجنسيات، ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات، ما عدا عصبيتهم الإسلامية، فإن المتدين بالدين الإسلامي، متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ويلتفت عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد.

٥- وقوله يستنكر الرفض الغربي المدفوع بالحقد للفكرة: أيُّ أصل من أصول العقل يستندون إليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل، ويعبرون عنه بمحبة الوطن، وأي قاعدة من قواعد العمران البشري يعتمدون عليها في التهاون بالتعصب الديني المعتدل وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها؟

زاد الأفغاني نشاطًا على نشاط وطفق يدعو في ربوع دول الإسلام إلى الانضمام إلى حرم الجامعة الإسلامية، والانضواء تحت راية القيادة الرسمية العثمانية بشكل واقعي عملي، لا يضر بمصلحة أي بلد من ناحية، ومن ناحية أخرى تكون هناك مرجعية واحدة يستطيع المسلمون أن يستظلوا برايتها، وأن يستقووا بها على مستضعِفيهم الكثر وأعدائهم الذين تداعوا بنهم ووحشية إلى قصعتهم.

مبايعة ودعوة

وقد بايع الأفغاني منفردًا السلطان عبد الحميد الثاني، ويفسر للتاريخ اختياره هذا فيقول: لأن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شراك أوربا، ولا من السعي وراء إضعافها وتجزئتها، وازدرادها واحدة بعد أخرى، إلا بيقظة وانتباه عمومي، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم.

وأخذ جمال الدين الأفغاني يكتب لرموز العالم الإسلامي يستحثهم على الدعوة في بلادهم لهذا الأمر، فجاءته الردود سريعة مشجعة تدعوه إلى المضي في هذا الطريق، وكان من الجميل أن كثيرًا من علماء الشيعة حينها أيدوا الفكرة وعضدوها.

ولكن على حسب ما تناوله التأريخ في تلك الفترة فالسلطان عبد الحميد تقلب من حال إلى حال كغيره من الملوك في عادة التوجس والترقب، وإن كان قد ختم حياته خير ختام، لكنه فتر عن الأمر قبل تمامه، وأخذ يتنصل من وعوده وتأميلاته.

مضت شهور والأفغاني ماضٍ في عزمه حتى لاحظ ذلك الفتور من قبل الخليفة صاحب الراية التي يدعو للانضواء تحت ظلها؛ فشعر حينئذ بأن المشروع يستحيل إتمامه على هذا النحو وبدأ يتراجع عنه حتى إنه قال للسلطان عبد الحميد الثاني ذات يوم: أتيت لأستميح سيادتك أن تقيلني من بيعتي لك، لأني رجعت عنها فقد بايعتك بالخلافة، والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد.

لم ينته الحلم بهذا الشكل فقد عاود الدعوة إليه السلطان عبد الحميد، ولكن بعد أن توفي الأفغاني وكله كمد لأنه لم يستطع أن يحقق ما كان يصبو إليه.

ثانيًا: الدعوة إلى التقريب بين السنة والشيعة[1]

يبرز على قائمة الأطروحات الجمالية أطروحة التقريب بين السنة والشيعة التي تبناها بفكر ومنهج عرَّضه لكثير من الأزمات وجعله موضع اتهام من ملفقي التهم.

وكانت هذه الدعوة من أهم قرائن رميه بالتشيع عند من قالوا عنه ذلك، لكن الأفغاني كعادته لم يعبأ بأحد ومضى يفند الأمر ويستنكر التفرق المذهبي بين السنة والشيعة، ولا يجد أي مبرر منطقي يفسر هذا الأمر.

من أقواله في هذا الموضوع: ظهر لآل البيت النبوي، في أوقات وأزمنة مختلفة أحزاب وشيع، فمنهم من ضل (كالمؤلهة) وهم من يقولون بألوهية علي بن أبي طالب، ومنهم (المفضلة) والغلاة في محبة أهل البيت، وقد دخل الاثنان تحت حكم من قال: "ويهلك فينا، أهل البيت، محب ومغال وعدو" قال: أما المفضلة من الشيعة، وهم يقلدون في المذهب الإمام جعفر الصادق، فهذا الجمهور من المسلمين لمجرد تقليدهم للإمام جعفر، ومغالاتهم في حب الآل، وتفضيلهم الإمام علي لا يجب أن نخرجهم من عداد المسلمين، ونجسم أمر هذه الفروق في الفروع، وصارت واسطة للتفرقة والنزاع، فللخصام، فالاقتتال، تلك الأمور التي سهل وجودها جهل الأمة، وسفه الملوك الطامعين في توسيع ممالكهم.

فالملوك من السنيين هولوا وأعظموا أمر الشيعة لاستهواء العوام بأوهام غريبة وعزوبات عجيبة على شيعة أهل البيت ليتسنى لهم بذلك تحزيب الأحزاب، وتجييش الجيوش، ليقتل المسلمون بعضهم بعضًا وبحجة الشيعة والسنية، وجميعهم يؤمنون بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ. أما مسألة تفضيل الإمام علي والانتصار له يوم قتال معاوية وخروجه عليه، فلو سلمنا أنه كان في ذلك الزمن مفيدًا أو ينتظر من ورائه نفع لإحقاق حق، أو إزهاق باطل، فاليوم نرى أن بقاء هذه النعرة، والتمسك بهذه

---

(١) راجع في ذلك: جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق ص ٤٢ - ٤٣.

القضية التي مضى أمرها وانقضى مع أمة قد خلت، ليس فيها إلا محض الضرر، وتفكيك عرى الوحدة الإسلامية.

وهذا الطرح على هذه الشاكلة لا يزال مبسوطًا إلى يومنا هذا على موائد الدعوة الإسلامية، وكثير من أطراف الفرقتين يرى أن كل خطوة تنجز في السبيل هي نجاح يزيد من قوة الأمة، ويرفع عنها بعضًا من أغلالها.

لكن رغم أهمية أطروحات التقريب هذه فإن الأمر ليس خياليًّا أو مثاليًّا كما يراه البعض؛ حيث يصطدم في نهاية الطريق بحاجز صلب من كلٍّ من الجهتين ضد الأخرى.

لكن الأفغاني مضى في طريقه وأصر في منهجه على أن كل الفوارق والاختلافات – التي يبدو غالبها نفسيًّا من صنع عوامل تاريخية – من الممكن أن تنصهر وتذوب بيسر لو كان كلٌّ من الطرفين مرنًا مع الآخر، لذا فهو يدعو إلى التنازل عن بعض الحقوق التي نستطيع أن نسميها نفسية من أجل التوافق والتقارب، وهذا قد يبدو صعبًا للغاية ويحتاج إلى كثير من النقاش.

ويقول الأفغاني يعرض لفكرته هذه:" لو أجمع أهل السنة اليوم ووافقوا المفضلة من الشيعة من عرب وعجم وأقروا وسلموا بأن عليَّ بن أبي طالب كان أولى بالخلافة من قبل أبي بكر، هل ترتقي بذلك العجم؟! أو تتحسن حال الشيعة؟

أو لو وافقت الشيعة أهل السنة، بأن أبا بكر تولى الخلافة قبل الإمام علي بحق، فهل ينهض ذلك بالمسلمين السنيين، وينتشلهم مما وقعوا فيه اليوم من الذل والهوان وعدم حفظ الكيان؟!

أما آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة؟! من هذا الموت قبل الفوت! يا قوم – وعزة الحق – إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لا يرضى عن العجم ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قاتلوا أهل السنة، أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبي بكر وجميعهم لا يحسنون أمر دنياهم، وكذلك أبو بكر فلا يرضيه أن تدافع أهل

السنة عنه، وأن تقاتل الشيعة، لأجل تلك الأفضلية التي مر زمنها، والتي تخالف روح القرآن الآمر أن يكونوا كالبنيان المرصوص".

ونعرج في هذا السياق على اعتقاد الأفغاني نفسه في القضية والذي يتضح من سياق تناوله لموضوع مثل التفضيل مثلاً، حيث يقول: أما قضية التفضيل، فلو استحقت البحث بعد تلك الأجيال لكفى أن يقال لحل إشكالها: إن أقصر الخلفاء الراشدين عمرًا تولى الخلافة قبل أطولهم عمرًا، فلو تولى الخلافة بعد النبي □، علي بن أبي طالب، لمات أبو بكر وعمر وعثمان ولم يتيسر لهم خدمة الإسلام والمسلمين بما استطاعوا أن يخدموه به رضوان الله عليهم أجمعين، حكمة الله في خلقه، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم.

ويرى أن الاعتقاد في حتمية وجود الإمام المعصوم – الذي تعتقده الشيعة – تمحل عقدي وأخلاقي يخرج عن منهجية الإسلام البينة فيقول: كفى بالشرع والإيمان معلمًا، فيكفي ما نتيقنه من القرآن، فلا حاجة إلى المعلم المخصوص وهو الإمام المعصوم، ولسنا نحتاج إلى نائب عن الشرع إلا في مجرد التبليغ، ثم من الشرع نفسه يكون العلم والأخذ.

ثالثًا: الأفغاني ومفهوم العقلانية في الإسلام[1]

العقل والعقلانية إشكالية لا زالت مطروحة في الوسط الديني لدى المسلمين، لاقت كثيرًا من الجدل والنقاشات والحروب بين طرفين متنافرين؛ أحدهما يقول بأن العقل له حدود يتوقف عندها ليس له أن يتخطاها وتعمل النصوص كما وردت، والآخر يقول إنه ليس للعقل خطوط حمراء فقد وهبه الله للإنسان كي يعمله ويصل به لكل حقيقة، وعلى رأس الحقائق حقيقة التوحيد وحقيقة الدين، وكانت هذه المعارك تنتهي بأن يكيل كل من الطرفين التهم والسباب للآخر؛ فيتهم الطرف القائل بتنحية العقل الطرف الآخر بالمروق عن الدين والبدعية وقد يصل الأمر إلى التكفير، ويتهم الطرف الثاني الطرف الأول بالرجعية والنصوصية والتخلف.

وقد حاول بعض العقلاء أن يفصل بينهما بالتوفيق ومحاولة فهم أصوب للمقاصد التي يراها كلا الطرفين، إلا أن المسألة بعمومها تقول إنه بالفعل هناك اختلاف بيِّن وبون شاسع بين الرأيين فهما مختلفان تمامًا وقد لا يلتقيان إلا من زوايا ضيقة، وما يهمنا في هذا الصدد أن نقول إن الأفغاني بطبيعة الحال وبطبيعة منهجه وأسلوبه الدعوي والحركي، كان عقلانيًّا للغاية فإشكالية فكره التي عرضته لانتقادات كثيرة، كان أكثرها بسبب عقلانيته في الولوج إلى الدين وأحكامه، فكان يقول: هذا الدين يطالب المتدينين بأن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم وكلما خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وإن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة.

وعلى هذا كان الأفغاني ينفر أشد النفور من التقليد وأهله حتى كان يقول وهي من كلماته البلاغية عميقة الدلالة والتلميح على المقلدين: القبة الجوفاء لا ترجع إلا

(١) رواد الوعي الإنساني ص ٢٨- ٢٩.

الصدى. أي أن المقلد الذي لا يعمل عقله هو أسطوانة خاوية ليس لها من الصوت إلا تفخيمه أو ترجيعه كما صدر.

ويقول – أيضًا – ساخرًا من هؤلاء: عمامة كالبُرج وجبة كالخُرج.

أي هؤلاء مظاهر بلا جواهر، الشكل يوحي بالعلم وعلو القامة والقدم، والمخبَر فراغ وخواء، تقول: قال فلان فقلنا ولا تستطيع أن تقول: قال فلان وقلنا، وإن استطاعت تعد ذلك خروجًا ومحرمة.

وكان الأفغاني يستنكر في هذا الصدد القول بأن الاجتهاد انتهى أو أن بابه أُوصد، ويشن على القائلين بذلك ويحاربهم، ويقول: إن القرآن ما أنزل إلا ليفهم، أي لكي تتدبر معانيه بالعقل، وتدرك أحكامه ومقاصدها، فمن كان عالمًا باللسان العربي، وعاقلاً غير مجنون، وعارفًا بسيرة السلف، ومحيطًا بطرق الإجماع؛ جاز له النظر في أحكام القرآن وتدبر مراميها.

رابعًا: قصة الأفغاني مع الماسونية .. الزلة التي لم تغتفر[1]

بداية: ما هي الماسونية؟

هي جمعية ذات أصل صهيوني قامت تدعو إلى الخير والحب والتعاون والإخاء، وانتشرت في ربوع المعمورة بشكل لم يكن بينًا في البداية للعامة، ثم في عصرنا هذا افتضح أمرها، وإن كانت لا تزال لها قدم قوية في مجتمعاتنا العربية الإسلامية.

اخترقت الماسونية صفوف الصفوة من المجتمع حيث اجتذبتهم بطريقتها المخادعة، متسترة خلف شعاراتها الإنسانية البراقة، فاستقطبت المثقفين وأهل العلم وأهل المال، حتى تنتشر بالأولين، وتنال الشرعية بالأواسط، وتعضد بالآخرين.

الأفغاني والماسونية

وفي هذه السطور لن أحاول دفع التهمة عن جمال الدين الأفغاني، بل سأثبتها، فالرجل بالفعل كان عضوًا بارزًا في الماسونية في يوم من الأيام للمنهجية والإنصاف وسيكون الدفاع من جمال الدين شخصيًّا، وهنا يجب علينا الإجابة على أسئلة خاصة بهذا الشأن:

- متى اشترك الأفغاني فيها؟
- لماذا اشترك الأفغاني فيها؟
- هل كان يعرف الأفغاني جذورها؟
- هل استمر الأفغاني فيها؟

وتأتي الإجابة موجزة في الآتي:

- اشترك الأفغاني في الماسونية في سبعينيات القرن التاسع عشر.

---

(١) راجع في ذلك: زعماء الإصلاح ص٧٢-٧٣، وحسن حنفي ص ١٩.

- اشترك الأفغاني في الماسونية بناء على شعاراتها التي كان يرفع مثلها، وهو بحصافته لم يكن ليدع طريقًا سينقله إلى الأمام خطوة ويتركه خاصة وأن هذه الجمعية كانت تضم علية المجتمع من جميع الاتجاهات والمجالات المؤثرة داخل الدولة.
- بالطبع لم يكن الأفغاني على دراية بجذورها وأهدافها، ولعل من البدهي في بحث هذا الموضوع أنه ما كان لأحد أن يكشف أن الماسونية لها أهداف مدمرة للإسلام، حتى إنه في عصرنا هذا قليل هم الذين يعرفون حقيقة الماسونية.

يكفي الرجل تبرئة له من تلك التهمة التي تصيدها أهل التصيد والزلات، أنه قال عندما صدم بحقيقتها – لا أقول حقيقتها الصهيونية فهذا لم يكشف إلا بعد ذلك بكثير، لكن أقصد حقيقيتها التنصلية من واقع الناس والحياة – لذا كان رد فعله بينًا في خطابه الذي استقال بعد إلقائه من الماسونية؛ حيث قال فيها عندما وجد أعضاءها لا يحبون الحديث في السياسة: أول ما شوقني للعمل في "بناية الأحرار" عنوان كبير خطير: حرية – مساواة – إخاء، وأن غرضها: منفعة الإنسان – سعي وراء دك صروح الظلم – وتشييد معالم العدل المطلق، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين أسطوانتي المحافل الماسونية! إذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون وفيها كل بناء حر، وإذا كانت آلات البناء التي بيدها لا تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة، وإذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتو والجور فلا حملت يد الأحرار مطرقة ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة.

وغادر الأفغاني بذلك المحفل فما بالنا لو علم ما نعلمه الآن، وكبار رموزنا الآن أعضاء فيها، ولا يلقوا ما يلقاه رجل أفضى إلى ما قدم والأولى فيه حسن الظن، فما يضيرنا والدليل معنا، لو أقررنا أن الرجل دخل الماسونية عن غير علم بألاعيبها ككثير من أعيان الوقت حينها، ثم حينما عرف بعض الحقيقة أعلن استقالته واعتزل. وقد بسطنا لذلك في موضعه في الفصل الثاني.

خامسًا: التهور السياسي وقلة المرونة[1]

كما نتعلم من الأعلام حسن السيرة وسداد الأمر، نتعلم أيضًا من زلاتهم وأخطائهم التي كانت مبنية على محض اجتهاد بشري عرضة للإصابة والخطأ، فالأفغاني كان من أهم الصفات التي ميزت منهجه الحركي خلال أسفاره ودعواته، أنه كان متحمسًا للغاية، وربما كان يدفعه هذا الحماس أحيانًا للاندفاع في اتخاذ القرارات، والتعامل مع التعنتات التي كانت تواجهه.

فقد كانت روح جمال الدين الثائرة تأبى الاستكانة وتأبى المرونة المرحلية حتى وإن كانت مقبولة وضرورية في رحلته.

وتتضح هذه السمة عندما يقول: إذا صح أنه من الأشياء ما ليس يوهب، فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال، لأن الحرية الحقيقية لا يهبها المسيطر للأمة عن طيب خاطر، والاستقلال كذلك، بل هاتان النعمتان إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم أخذًا بقوة واقتدار بجلب التراب منها بدماء أبناء الأمة الأمناء، أولي النفوس الأبية والهمم العالية.

وهذا ما استنكره الإمام محمد عبده في شخصية أستاذه الأفغاني؛ حيث رأى أنه تفرغ لانتفاضاته السياسية الفردية التي جلبت عليه وعلى دعوته كثيرًا من المعوقات التي قصرت عمر رحلته، فيقول محمد عبده: إنه صرف همه للسياسة فأضاع كل شيء، مع أنه كان أعرف الناس بآلام وحالة المسلمين، وكان قادرًا على النفع العظيم بالإفادة والتعليم.

---

(١) راجع في ذلك: د/ محمود قاسم ص٦٦، وجمال الدين الأفغاني موقظ الشرق ص ٢٣٩، نقلاً عن الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٤٧٨.

وعلق على زيارته الثانية لتركيا بقوله: إنه لو تقرب من السلطان بمقدار يمكنه من العمل على إصلاح التربية والتعليم من غير تعرض لفساد حاشيته ولا تدخل في شؤونهم، بل مع مهادنتهم على أغراضهم الخسيسة لكان حسنًا، ولقدر أن ينفذ مآربه، مثلاً يحسِّن للسلطان أن يصدر إرادته بإصلاح الوعظ في الجوامع والتعليم الديني في المدارس، ويقرن هذا السعي بأن يعطي أبا الهدى (شيخ الإسلام في تركيا) خمسمائة جنيه، وإعطاء نيشان لابنه أو لأخيه، فعندما يراه أبو الهدى يخدمه فيما هو مهم عنده، فإما أن يواتيه وإما أن لا يناوئه.

وبالطبع مع الإمام محمد عبده الكثير من الصواب فالدعوة إلى الله قد تحتاج صبرًا وحنكة وحيلة، وأحيانًا الأمر بالمعروف قد يتحول إلى منكر إذا لم يراع الداعي المقام ويختبر المقال، لكن مع هذا كان من العسير على مثل جمال الدين أن يتحرك بمثل هذه المنهجية، وهو على سماته الشخصية تلك، والتي أوقعته في كثير من المشاكل وزادته إعاقات على إعاقاته وأعداء ألداء على أعدائه.

كل ذلك بسبب ما أسميناه تجاوزًا منا: تهورًا سياسيًّا واندفاعًا وراء العاطفة المتأججة والثائرة على الواقع.

وقد كانت هذه الجرأة والشجاعة المشهود لها في حاجة إلى مرونة ومنهجية حركية تضبط تصرفات الداعية، وهذا ما تغافله الأفغاني بشكل كبير، ولو كان قد انتبه إلى هذا لكسب الكثير مما خسره، ولكن عادة الكمال الدنيوي أنه دائمًا يبدو ناقصًا.

سادسًا: مواقف وكلمات جمالية

مواقف جمالية

جواسيس السلطان

من المواقف الجمالية اللطيفة أن جمال الدين في زيارته الأخيرة للآستانة كان السلطان عبد الحميد مضيقًا عليه الخناق بشدة، وكان عباس حلمي خديوي مصر في زيارة هناك، فمر ذات يوم بمتنزه كان يوجد فيه الأفغاني مصادفة ومعه بعض أصحابه.

وكان الخديوي يحب أن يرى الأفغاني ويجتمع به غير أن اجتماع مثليهما لعهد عبد الحميد كان من الصعوبة بمكان فاكتفى عباس برفع يده مشيرًا بالسلام إلى جمال الدين ومن حوله، فوقفوا له وحيوه من بعد، وغادر المكان فلم يلبث الجواسيس أن رفعوا تقاريرهم عن هذه الخيانة العظيمة التي استطاعوا بالطبع أن يحوروها ويزيفوا فيها ما أرادوا حتى يرفعوا تقريرًا قيمًا ينبئ عن يقظتهم، فجاء في تقريرهم أن الخديوي خلا بجمال الدين الأفغاني وتحادثا طويلاً في شؤون الخلافة، فما لبث السلطان أن استدعى الأفغاني، واستفسر منه عن ذلك، وأطلعه على التقارير فتبسم الأفغاني من هزلها وقال للسلطان: إن نبينا ﷺ كان له من صحابته جماعة يخبرونه بما ينبغي أن يعرفه من أخبار الناس، وما يجري بينهم من شؤون وحوادث، لكنه ﷺ ما كان ليأتمن على هذا العمل إلا من توافرت فيه الخلال الحسنة كالصدق والإخلاص وسلامة الوجدان وحسن القصد لا أمثال جواسيسك الذين حولك، فضحك السلطان ووافقه على ما قال ومزق التقرير بين يديه.

الأفغاني .. سفير رباني

أيضًا ومن حكايات الأفغاني مع الجواسيس أن شريف مكة غضب على أحد المكيين المقيمين في الآستانة وخشي هذا المكي على نفسه من تعقب الشريف له، فالتجأ إلى منزل السيد جمال الدين، معتصمًا به. فطمأنه السيد وهدأ روعه، غير أن اعتصامه هذا خلق للجواسيس شغلاً ينقلونه ويستغلونه، فجعلوا يطوفون بمنزل جمال الدين ويراقبون اللاجئ المذعور. فكان السيد يرق له ويصحبه في عربته أحيانًا إلى المتنزهات.

فقيل له يومًا: أبعد عنك هذا الرجل وأرح نفسك من مضايقة الجواسيس، فقال: ما لي والجواسيس، هؤلاء سفراء الدول إذا لجأ إليهم لاجئ حموه من كل أحد حتى من هؤلاء الجواسيس، وأنا (سفير الله) في هذا البلد أفلا ينبغي أن يطرد هؤلاء الجواسيس عني كما طردوا عن سفراء البشر!

ملتي .. ملتي!

روى الشيخ عبد الرشيد إبراهيم قال: دخلت على الشيخ جمال الدين أخريات أيام مرضه فأشار إلي بيده أن ادن فدنوت منه وكان لا يستطيع الكلام، فأخذ قلمًا وورقة وكتب فيها: "تشهد يا الله أن كلام النبي ﷺ قبيل وفاته: أمتي .. أمتي، وأنا أقول: ملَّتي .. ملَّتي" قال: وبعد نحو ساعتين رجعت إليه وإذا بهم يقولون: توفاه الله.

كلمات جمالية

قال في شؤون الحياة والأخلاق:

- الفخر بالقول المجرد يبطله المُجِدُّ بالفعل.
- لا خير في حق لا تدعمه قوة.
- الذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان.

- لا أمة بدون أخلاق، ولا أخلاق بغير عقيدة، ولا عقيدة بغير فهم.
- القوي من الشجر لا يعجل بالثمر.
- من فُتح له الباب ولم يدخل أولى بالطرد.
- ألف قول لا يساوي في الميزان عملاً واحدًا.
- الشباب جسر من الجنون لا غنى للعقلاء من المرور عليه.
- خطب ذات مرة بالإسكندرية قبل خلع الخديوي إسماعيل، فقال: "أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتنبت ما تسد به الرمق وتقيم أود العيال. فلم لا تشق قلب ظالمك؟! لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك!"
- وخطب في المصريين يومًا فقال: "لو كان في عروقكم دم ينبض، وفي رؤسكم أعصاب تتأثر فتبعث النخوة والحمية، لما رضيتم بهذا الذل ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم تضحكون".

وقال عن الإسلام والدين والقرآن:

- إن الدين قوام الأمم، وفيه سعادتها، وبه فلاحها.
- إن الدين الإسلامي يكاد يكون متفردًا من بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، وتبكيت الخابطين في عشواء العماية.
- إن القرآن ما أنزل إلا ليفهم، أي لكي تُتَدبَّر معانيه بالعقل، وتدرك أحكامه ومقاصدها.
- رجاؤنا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع.
- إننا معشر المسلمين إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير فيه.

وقال عن الغرب والاستعمار:

- الغربي متكبر، طموح، صبور، قليل الذكاء، عظيم الثبات، شديد العناد. والشرقي متواضع، قنوع، جزوع، كثير الذكاء، سريع التقلب، قليل الصبر، يثبت الغربي حتى على الخطأ إذا وقع فيه، ولا يثبت الشرقي حتى على الصواب.

وقال في معنى الخيانة والوطنية:

- خائن الوطن هو من يكون سببًا في خطوة يخطوها العدو على أرض الوطن، بل من يدع قدمًا لعدو تستقر على تراب الوطن، وهو قادر على زلزلتها.

لا عار على أمة قليلة العدد، ضعيفة القوة، إذا تغلبت عليها أمة أشد منها قوة وأكثر سوادًا وقهرتها بقوة السلاح، وإنما العار أن تسعى الأمة لتمكين أيدٍ من نواصيهم، إما غفلة عن شؤونهم، أو رغبة في نفع وقتي.

الخاتمة

قد نختلف مع جمال الدين الأفغاني في كثير من أفكاره ومواقفه، إلا أننا تعلمنا من نبينا ومعلمنا ﷺ أن المسلم الفطِن طالب حكمة فهي ضالته التي ينشدها، فأنى وجدها تلقفها بشغف، دون أن يسأل من صاحبها.

وعليه؛ فإنه لن يختلف المنصفون من مؤيديه أو مخالفيه أن جمال الدين الأفغاني كان رجلا صاحب رسالة إصلاح أكرى حياته كلها لها، وأفرغ ذهنه من كل شيء ولم ينشغل سوى بمشروعه الإصلاحي الذي آمن به وسعى إلى تطبيقه، فأمضى جل حياته متنقلا من قطر إلى قطر، ومن قارة إلى قارة، متحملا في ذلك النصب والجهد البدني الشاق، والألم النفسي الذي كان يعانيه من المكائد التي كانت تحاك ضده ليل نهار، فصبر وصابر رغم كل ذلك.

وترك الرجل عبر مسيرته الطويلة أثرًا عظيمًا لا يقل عما تركه زعماء كُثْر سجلهم التاريخ في سجل المناضلين من المسلمين وغير المسلمين. وقد وقفنا من جانبنا محايدين، وإن كنا ملنا إلى إنصافه وإظهار محاسن سيرته - لا سيما المتعلقة بكونه داعية ومصلح اجتهد كثيرًا ولم يحالفه الصواب على الدوام - فذلك لأن ظاهر عمله الصالح يوجب علينا أن ننصفه ونمتدحه، ونكل سريرته وما خفي عنا إلى الله ﷻ، وهو الأعلم بها منا.

وأخيرًا - ورغم كل شيء - نقول: رحم الله الأفغاني وجازاه عن المسلمين خيرًا، وتقبله وعمله على أحسن وجه حسبناه عليه، وغفر له ما لم نعلمه عنه، أو أُلبس علينا فيه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- جمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته – د/محمود قاسم – مكتبة الأنجلو المصرية.
- زعماء الإصلاح في العصر الحديث – أحمد أمين.
- جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق – د/ محمد عمارة – دار الشروق– الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- حقيقة جمال الدين الأفغاني (الجزء الثاني) – د/ عبد النعيم حسنين – دار الوفاء للطباعة والنشر (المنصورة) – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني للدكتور محمد عمارة – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٨.
- خاطرات جمال الدين – محمد المخزومي باشا – دار الحقيقة – بيروت ١٩٨٠.
- جمال الدين الأفغاني (المئوية الأولى) – د/ حسن حنفي – الهيئة المصرية – ١٩٩٩.
- رواد الوعي الإنساني – د/ عثمان أمين – دار القلم – أكتوبر ١٩٦١م.
- جمال الدين الأفغاني بين دارسيه – على شلش – دار الشروق – الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- جمال الدين الأفغاني – عبد القادر المغربي – دار المعارف – الطبعة الثالثة.

- قضايا من الفكر الإسلامي الحديث – د/ عبد اللطيف العبد – دار الهانئ – ٢٠٠٥م.
- أقلام ثائرة – حسن الشيحة – دار القلم – ديسمبر ١٩٦٣.
- الوقائع المصرية – عدد ٥ يولية ١٨٧٩.
- مواقع شبكة الإنترنت.
- موقع وزارة الأوقاف المصرية http://www.islamic-council.com.
- إسلام أون لاين.
- مقالات إيمان يحيى.

الفهرس

الموضــــــــــوع **الصفحة**

الموضـــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع **الصفحة**

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

رحالة الإصلاح

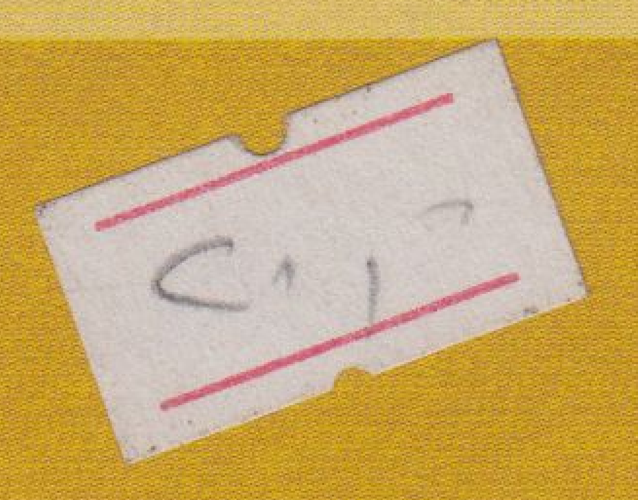
جمال الدين الأفغاني

Gamal Al-Din Al-Afghani

جمال الدين الأفغاني صفحة مشرقة من صفحات النضال الإصلاحي في القرن التاسع عشر، اطلع عليها الجميع، باختلاف الأفكار والاتجاهات، وانقسموا حول الرجل بين مؤيد ومعارض، ومتَّهم ومبرِّئ، وظل الحكمُ على الأفغاني وفكره أمراً يصعب على الكثير من الباحثين حتى الآن.

وهذا الكتاب ليس ساحة لمحاكمته أو محاكمة ناقديه، ولكنه تبسيط لسيرة رجل كان يحمل كثيراً من المميزات والسمات التي يُرغَب اقتفاؤها، ولم تخل حياته بطبيعة بشريته ودعوته من سقطات وزلات، مرت على منصفيه مر الكرام وأوجدوا لها ما يبررها، وجعلها شانئوه وصمات في سلوك الرجل، وجعله أوسط الفريقين علامات يتركها المصلحون خلفهم تنبه لاحقيهم ممن حذى حذوهم.

ففي هذا الكتاب - عزيزي القارئ - نعرض لحياة جمال الدين الأفغاني الإنسانية منذ مولده ونشأته وطبيعة أسرته، ثم تنقله من بلدة إلى بلدة وترحاله [illegible] في صغره، ثم طلباً للإصلاح وتطبيق مشروعه الإصلاحي في شباب[illegible] وعرضنا لفكره ومذهبه الذي خاض فيه الكثير.













ISBN 977-408-746-1